



هَذَا نَسْرُ الْحَمْدِ فِي مَوَاقِعِ الْقُرْآنِ



تَأْلِيفُ
د. مُحَمَّدٍ سُرِّي الرَّادِّهِ



هَذَا تِلْكَ الْحَمْدُ
فِي
مَوْعِظَةِ الْقُرْآنِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧ م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

إبراهيم، محمد يسري
هداية الرحمن في مواظب القرآن
تأليف محمد يسري إبراهيم
القاهرة، دار اليسر ٢٠١٧ م.
٣١٢ ص، ١٧ × ٢٤ سم.
تتمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٣٩٩
١- قرآن (قرآن)
أ- العنوان

٢٥٣

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية، أو إلكترونية، أو ميكانيكية، ويشمل ذلك: التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة، أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك: حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن

مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية

تليفون: ٠٢ ٢٤٧٠٩٢٦٩ - محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨

فاكس: ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ - خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com

Email: alyousr@gmail.com

info@dar-alyousr.com



عضو اتحاد
الناشرين
المصريين



رقم الإيداع

٢٠١٧/٩١٤٦

ترقيم دولي

978-977-794-039-9



9 789777 940399

مَوْلَاةُ الرَّحْمَنِ
فِي
مَوْاعِظِ الْقُرْآنِ

هَذَا تِلْكَ الْحَمْدُ
فِي
مَوَاقِعِ عِظَمِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ
فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدُ سَبْرِي الْبَرْهَمِ





المقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن هداية للعالمين للتي هي أقوم، وموعظة بليغة للناس تأخذ بأيدي الخلق للخلق الأكرم، وتشفي بدوائها أدواء النفوس وأمراض القلوب فتبرأ وتسلم..

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وموعظة القرآن أحسن المواعظ وأنفعها، وأسهل الأدوية على القلوب والأبدان وأيسرها، فهي الرحمة الكاملة الشافية.

﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «... فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد»^(١).

ومن شأن مواعظ القرآن: أن تقشعر منها جلود المؤمنين، وأن تنقبض من شدتها

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي (ص ٢٣).

قلوب المتقين؛ رهبةً من تخويف توجل منه القلوب، فإذا جاءت موعظة الترغيب والتقريب هشت لها القلوب، وبشت لها الأبدان، ولانت الأفئدة وانشرحت الصدور، وأملت الخير من رب غفور!

ومواعظ القرآن نعمت التذكرة من الغفلة، والهداية من الضلالة، والسعادة من الشقوة!

فإذا تليت الآيات والعظات فإنها - ولا بد - نافعةٌ مذكّرة، مُصلحةٌ ومُوقظة!

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فإذا لم تقع الذكرى بعد تلاوة موعظة القرآن فلم تتأثر قلوب سامعة، أو تخشع جوارح حاضرة، أو تنصدع صدور واعية؛ فإن العلل في القلوب قد تمكّنت، والأدواء في الصدور قد تحكّمت!

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لقد أسمع منادي الإيمان لو صادف آذاناً واعية، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً من غيها خالية، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة فأغلقت أبواب رشدّها، وأضاعت مفاتيحها وran عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت بشهوات الغي وشهادة الباطل فلم تصغ بعده إلى الملام، ووُعِظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة، وأسر الهوى والشهوة؛ وما لجرح بميت إيلام!!»^(١).

ومواعظ الله تعالى لعباده المؤمنين في كتابه الكريم تنهى عن كل معصية ورذيلة:

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم (ص ٥٥).

وهذه المواعظ الغالية لا ينتفع بها إلا المؤمنون والمتقون!

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢].

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور:

٣٤].

والانتفاع بمواعظ القرآن يحمل القلب على الخشوع والخضوع والإخبات، والجوارح على المسارعة إلى الكفِّ عن السيئات، وامتنال الطاعات، وهذا هو ما يُثَبَّت القلوب على طريق علام الغيوب ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهًا ﴾ [النساء: ٦٦].

فإلى مواعظ القرآن الموقظة، وإلى سهام القرآن النافذة؛ لتزول القسوة، وتنجلي الغفلة، وتتابع العبرة، وتهطل العبرة، وترق القلوب وتحقق الزهادة، وتتجدد العبادة.

فاللهم انفعنا بمواعظ القرآن وبياناته، وسلِّمنا لامتنال أوامره وأحكامه، وبلغنا في مجالس القرآن مما يرضيك آمالنا، وهيئنا في الدنيا بركة القرآن لنكون من أهل مجاورتك في فردوس الجنان، برحمتك يا رحيم يا منان.. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

أبو عبد الله
محمد يسري إبراهيم

الدوحة

٢٢ شعبان ١٤٣٨ هـ

١٨ مايو ٢٠١٧ م

الموعظة الأولى

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]

الحمد لله يعيذ من به استعاذ، ويغيث من به استغاث، وصلى الله وسلم وبارك على
الحبيب المصطفى والنبي المجتبي، وعلى آله وأصحابه أهل النقا والتقى، أما بعد:
فإن الاستعاذة طلب العوذ والإعاذة، فهي طلب الحماية المقرون بالتجرد من كل
حول وطول وقوة إلا من حول الله وقوته تعالى في كماله!
وهي تعبر عن اعتراف بالضعف والحاجة، والافتقار إلى القوي الكبير المتعال!
وهي منزلة من منازل الإيمان الأولى التي تلجئ العبد إلى الرب، وتحمله على
معرفة حقائق هذه الحياة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَعْنَى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: امْتَنِعْ بِهِ، وَاعْتَصِمْ بِهِ، وَاجْتَأِ
إِلَيْهِ.. وَمَصْدَرُهُ: الْعَوْدُ، وَالْعِيَاذُ، وَالْمَعَاذُ؛ وَغَالِبُ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْمُسْتَعَاذِ بِهِ، وَمِنْهُ: قَوْلُ

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لقد عُذْتُ بِمَعَاذِ) ^(١).

وأصل اللفظة من اللَجَأِ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب: «أطيب اللحم عُوْذُهُ» أي: الذي قد عاذ بالعظم، واتصل به» ^(٢).

وقد أمر الله تعالى في كتابه بالاستعاذة تارة عند التلاوة، وأخرى عند حضور نزغات الشيطان وهمزاته!

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ^(١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿[المؤمنون: ٩٧-٩٨].

وإنما خصَّ الله تعالى هذين الموطنين المتضادين - وهما: تلاوة القرآن، وهمزات الشياطين - بالأمر بالاستعاذة؛ لئلا يمنع الشيطان حصول الخير عند وجود سببه الذي هو التلاوة، فيحول بين العبد وبين الانتفاع بالقرآن، وأمر بالاستعاذة كذلك عند همزات الشيطان؛ ليمنع حصول الشر عند وجود سببه الذي هو همز الشيطان ووسوسته.

والشيطان أحرص ما يكون على خذلان العبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته، فهو أحرص شيء على صرفه عنه، وانتفاعه دونه بالبدن والقلب، فإن عجز عن اقتطاعه وتعطيله عنه بالبدن؛ اقتطع قلبه وعطَّله،

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥٥) من حديث أبي أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ١٥٧).

وألقى فيه الوسوس؛ ليشغله بذلك عن القيام بحق العبودية بين يدي الرب تبارك وتعالى، فأمر الله العبد بالاستعاذة بالله من الشيطان؛ ليسلم له مقامه بين يدي ربه وليُحيي قلبه، ويستنير بما يتدبره ويتفهمه من كلام الله سيِّده الذي هو سبب حياة قلبه، ونعيمه وفلاحه، فالشيطان أحرص شيء على اقتطاع قلبه عن مقصود التلاوة.

ولما علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَسَدَ العدو للعبد، وتفرُّغه له، وعلم عجز العبد عنه؛ أمره بأن يستعين به سبحانه، ويلتجئ إليه في صرفه عنه، فيكتفي بالاستعاذة من مؤونة محاربته ومقاومته، وكأنه قيل له: لا طاقة لك بهذا العدو، فاستعِذْ بي أُعِذْكَ منه، واستجِرْ بي أُجِرْكَ منه، وَأَكْفِكَهُ وَأَمْنَعَكَ منه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقال لي شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه، ونور ضريحه - يوماً: إذا هاش عليك كلب الغنم فلا تشتغل بمحاربته، ومدافعته، وعليك بالراعي فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب ويكفيكه، فإذا استعاذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم أبعده عنه»^(١).

وفي السنة مواضع أخرى طُلبت فيها الاستعاذة، والذي يتعلق بما نحن بصدده الآن: الأمر بها عند تلاوة القرآن.

ولهذه الآية التي أمرت بالاستعاذة عند التلاوة دلالات في وجدان أهل القرآن، فمن هذه الدلالات ما يلي:

الدلالة الأولى: عداوة الشيطان للإنسان:

الأمر بالاستعاذة عند تلاوة القرآن يعني: أن خطراً عظيماً يستشعره التالي من الشيطان عند حضور مجلس تلاوة القرآن.

(١) أسرار الصلاة، لابن القيم (ص ٣٩).

فما هو هذا الخطر العظيم؟

هذا الخطر هو شدة عداوة الشيطان للإنسان، وهذا يتمثل في أمور محدّدة؛ هي:

١ - عداوة الشيطان لأصل الإنسان:

فقد خاطب الله تعالى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

وإذا عادى الأصل فسيعادي الفرع، وقديماً قيل: «عدو جدك لا يودك».

وقد حكى الله تعالى قوله عن الذرية: ﴿لَأَحْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

٢ - عداوته لبني آدم بسبب الدين:

والعداوة في الدين أشد العداوة، فهو كافر ونحن مسلمون، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِلَهُمُ ابْنُ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وعداوته لا تنقضي أبداً حتى نكون من أصحاب السعير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٣ - أن للشيطان تسلطاً على الإنسان:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وفي الحديث: «إِنَّ

الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»^(١)، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَنَسَ، وَإِذَا غَفَلَ وَسَّوَسَ»^(٢).

٤ - أشد ما تكون عداوته ومدافعته حين يكون الإنسان إلى الهدى أقرب:

وهذه العداوة تكون حال تلاوة القرآن؛ ولهذا تأكد الأمر بطلب الحفظ والحماية والرعاية واللياقة من الله تعالى.

فكأنَّ المسلم تنفتح عين بصيرته على حقيقة المعركة الكبرى بيننا وبين الشيطان عند تلاوة القرآن، فيحتاج للاستعاذة من كيده ووسوسته.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد أمر الله تعالى بالتعوذ من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ عند التلاوة، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وعند السَّحَرِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَإِذَا أُمِرَ بِالتَّحَرُّزِ مِنْ شَرِّهِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فَكَيْفَ فِي غَيْرِهِمَا»^(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشَّيْطَانُ أَحْرَصُ مَا يَكُونُ عَلَى الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يَهْتَمُّ بِالْخَيْرِ، أَوْ يَدْخُلُ فِيهِ؛ فَهُوَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ - حِينَئِذٍ - لِيَقْطَعَهُ عَنْهُ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ عِفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ لِيَقْطَعَ عَلَى الصَّلَاةِ...)»^(٤) الحديث، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحبَّ إلى الله تعالى؛ كان اعتراض الشيطان له أكثر»^(٥).

والمراد: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٤) من حديث صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٩١٩)، وأبو داود في الزهد (٣٣٧).

(٣) تلييس إبليس، لابن الجوزي (ص ٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦١) من حديث أبي هرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) إغاثة اللفهان، لابن القيم (ص ٩٣).

الدلالة الثانية: الانتفاع بالقرآن مرهون باللجوء إلى كنف الرحمن:

كل عمل من أعمال البر والإحسان أنت مفتقر فيه إلى عون الرحمن، فكل أمر بقضائه وقدره، وكل عمل بحوله وطَّوله، وكل خير بيده وحده لا شريك له!

والقرآن يدور الانتفاع ببيئاته، والاستماع بأذن الاستجابة لأوامره وزواجره على الافتقار إلى الله تعالى، واللياذ إليه وبه، والدخول في كنف توفيقه وهدايته.

والاستعاذة تَصْمَنُ هذا الشرط العزيز، فعند البراءة من الحول والطَّول، والافتقار إلى الكبير المتعال تهلُّ أنوار القرآن، ويتنفع ببركات الفرقان، وإلا فإن عوارض القراءة كثيرة، وصوارفها عديدة، وموانع الانتفاع مختلفة!

ولهذا فإن بعض الخلق قد يقرأ القرآن فيكون عليهم عَمَى - عيادًا بالله - ولا يزيدهم إلا خسارًا.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد يعرض لبعض الضالين ما يفسد الفهم والانتفاع بالقرآن ممن لم يعولوا في طلب الهداية عليه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الدلالة الثالثة: العائد المستجير آمِنٌ لا يضام:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩]، وقال الشيطان - عن عباد الله الذين لا سلطان له عليهم -: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ [ص: ٨٣]، وقال ﷺ - مخاطباً إبليس عليه لعنة الله -: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٤٣].

فالعائد بالله تعالى وبذكره؛ يأوي إلى ركن شديد، وهو في حصن حصين، وقد شبه النبي ﷺ العائد من الشيطان بذكر الله بالمتنع من العدو في حصن، وقد قال ﷺ: «وَأْمُرْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرَزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

ونختم هذه الموعظة بفوائد عظيمة في الأمر بالاستعاذة به سبحانه من الشيطان عند قراءة القرآن^(٢):

❖ منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، مُذْهِبٌ لما يلقيه الشيطان فيها من الوسوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أضره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويُخْلِى منه القلب، ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكّن منه، ويؤثّر فيه.

❖ ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نارٌ يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحسّ بنبات الخير في القلب، سعى في إفساده وإحراقه، فأمر الله العبد أن يستعيذ بالله من الشيطان؛ لئلا

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) من حديث الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) إغاثة اللهفان، لابن القيم (ص ١٥٧ - ١٦١).

يُفْسِدُ عَلَيْهِ مَا يَحْصُلُ لَهُ بِالْقُرْآنِ.

❖ ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته.

❖ ومنها: أن الشيطان يُجْلِبُ على القارئ بخيله ورجله؛ حتى يَشْغَلَهُ عن المقصود بالقرآن، وهو تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيد بالله منه.

❖ ومنها: أن القارئ مناجٍ لله بكلامه، والله تعالى أشدَّ أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القِيَنَةِ إلى قِيَتِهِ.

فلكل ما سبق بيانه فقد تأكد على الإنسان أن يلجأ إلى الرحمن عند إرادة تلاوة القرآن، عسى الله أن يفتح مغاليق القلوب، وأن يشرح مقفل الصدور لهداية القرآن، فتعي عن الله وتتنتفع، وتعمل بالقرآن فترتفع؛ والحمد لله رب العالمين.



الموعظة الثانية

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

[آل عمران: ١٩]

الحمد لله رب العالمين، رضي لنا الإسلام ديناً، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد قال العليم الخبير: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

فجعل الإسلام دين كل نبي أرسله، وعقيدة كل مؤمن أراد هدايته، فلا يقبل الله ديناً غيره، ولا ينفع العبد في الآخرة دينٌ سواه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولنا مع هذه الآية الكريمة وقفات:

الوقفَةُ الأولى: الإسلام دين الاستسلام لله وحده:

فالملة والشرع والدين المقبول، أو النافع، أو المرضي عند الله في الدنيا والآخرة هو الإسلام، الذي هو استسلام بالتوحيد الخالص لله، واتباع كامل لشرع الله، وبراءة مطلقة من الشرك وأهله.

عن الضحاك رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، قَالَ: «لَمْ أُبْعَثْ رَسُولًا إِلَّا بِالْإِسْلَامِ»^(١).

وعلاقة هذه الآية بالآية السابقة عليها، وهي قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]: أن مادة (س ل م)، تدور على السلامة من الفساد، والصلح بين الإنسان ونفسه، والصلح بينه وبين ربه، وبين الإنسان وإخوانه^(٢).

فإذا كانت الألوهية في الآية السابقة واحدة وقد أكدها؛ فإن الدينونة في هذه الآية واحدة أيضًا.

والدين الحق هو الإسلام دون غيره، والأديان التي يدين بها الناس اليوم ليست أديانًا مقبولة عند الله تعالى.

فهي جهة واحدة تملك الحق في تعبيد الخلق للخالق، وفي إنفاذ شريعته الحاكمة وإقامة الحياة وفقًا لها، وهذا هو الإسلام؛ إنه استسلامٌ وخضوعٌ وانقياد، فهو عبودية بالقلب واستسلام، وعبودية بالقلب واحتكام.

والإسلام بالنسبة للأمم السابقة كان وصفًا لها ولم تتسم به!

أما بالنسبة لأمتنا فهو عِلْمٌ عليها، فاسمها الإسلام، وهذا مما شرفها الله به! فكل أمة تنسب إلى دينها؛ كاليهودية، أو النصرانية، أو إلى نبيها فاليهود موسويون، والنصارى مسيحيون.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٣١٤).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس (٩٠/٣).

أما المسلمون: فلا يقال عنهم: محمديون، ولا يقال إلا إنهم مسلمون.

قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

فهذه تسميتنا وليست صفتنا فحسب، ولا تكون الصفة اسماً إلا إذا أخذ الوصف فيها الديمومة والإطلاق؛ فالمسلمون هم من بالغوا في الاستسلام والتسليم لرب العالمين.

الوقفَةُ الثَّانِيَّةُ: الإسلام دين الفطرة:

﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِمَ خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّابِ الدِّينِ الْقَيِّمِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد قال الله في الحديث القدسي: «... وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ»^(١).

فالدين والتدين الحق فطرة، قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وعليه؛ فإن الإنسان - في كل زمان ومكان - لا بد له من دين يتدين به، ومعبود وخالق يذل لسلطانه، وإله يتوجه إليه راهباً من عقابه، وراعباً في ثوابه.

والفطرة متهيئة لقبول الإسلام الذي جاء به رسل الله عبر الزمان والمكان.

«فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد ديناً سواه»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٤٤٢).

الوقفة الثالثة: الإسلام في لسان الوحي - كتاباً وسنة - له معنيان:

المعنى الأول: هو دين أنبياء الله قاطبة من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

المعنى الثاني: هو دين نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الدين الخاتم.

أما دين الأنبياء: فهو الإسلام العام، وهو التوحيد والتعبد بشريعة كل نبي في ذلك الزمان والمكان، وهو بمثابة الوصف لكل تلك الأمم الموحدة.

وقد قال تعالى على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:

[٧٢].

وقال على لسان إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصِّلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامِنَّا بِاللَّهِ وَشَهِدَ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:

[٥٢].

وبناءً عليه؛ فإن المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]: هو الإسلام

العام الذي يعني: اعتقاد أن لا إله إلا الله، ثم التعبد بشريعة الرسول الذي كان في ذلك الزمان والمكان، ومن هذه الحيثية: يدخل دين نبينا محمد ﷺ في الحديث: «الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَمُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»^(١).

أما الإسلام الخاص فهو الخاتم، وهو دين نبينا محمد ﷺ، وهو هنا بمثابة العلم على دين نبينا محمد ﷺ وعلى أتباعه.

وهو يجمع - إلى التوحيد الخالص - الاتباع الكامل لمحمد ﷺ، والبراءة من الشرك وكل دين غير دين الإسلام.

وقال ابن الوزير اليماني رَحِمَهُ اللهُ: «نَجَاةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلِزُومِ مَا جَاءَ بِهِ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ»^(٢).

وفي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ - يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ - ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(٣).

وهو الإسلام المذكور في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فكل دين سوى الإسلام الذي بُعث به سيد الأنام فليس بدين عند الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فَمِنْ حِينَ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَكُنِ الْإِسْلَامُ إِلَّا مَا أَمَرَ بِهِ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا لِغَيْرِهِ، فَمَنْ اسْتَسْلِمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ فَجَعَلَ لَهُ نَدًّا فَهُوَ مُشْرِكٌ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) إشار الحق على الخلق، لابن الوزير (١٠٢/١).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) الصفدية، لابن تيمية (٣١٤/٢ - ٣١٥).

«فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان، فدين الرحمن: هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصائبة ودين المشركين»^(١).

ثم يكتمل عقد الإيمان بموالاته أهله، ومعاداة أعدائه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَهَاتُ الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ﴾ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۚ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿ [سورة الكافرون].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

أَبِي الْإِسْلَام لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ

وكل أرض دخلها الإسلام فهي أرض مسلمة.

الصِّينُ لَنَا وَالْعُرْبُ لَنَا وَالْهِنْدُ لَنَا وَالْكُلُّ لَنَا
أَصْحَى الْإِسْلَامُ لَنَا دِينًا وَجَمِيعُ الْكَوْنِ لَنَا وَطَنًا
تَوْحِيدُ اللَّهِ لَنَا نُورٌ أَعْدَدْنَا الرُّوحَ لَهُ سَكَنًا

فالإسلام رابطة قلوب الموحدين - على أرض الله - أجمعين.

الوقف الرابع: محاسن الإسلام:

للإسلام محاسن ذاتية تنطق بكماله، وتدعو إلى هدايته، وتؤكد صلاحيته في كل زمان ومكان؛ وهذه لمحات سريعة عن محاسن الإسلام الدينية الذاتية:

١ - الإسلام هو الدين الحق المعصوم في أصله:

قال تعالى - عن القرآن -: ﴿وَبَلَّغْ أَمْرَهُ وَبَلَّغْ نَزْلَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٢).

وقال تعالى عن السنة: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]،
وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيْتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

٢- الإسلام دينٌ وهويَّةٌ وجنسيَّةٌ عالمية:

قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ...»^(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٣)،
«وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً»^(٤).

لهذا يعتقد المسلم ويستشعر تلك الرابطة العالمية والجنسية الإيمانية مع كل إخوانه في الدنيا.

إِذَا اشْتَكَى مُسْلِمٌ فِي الْهِنْدِ أَرْقَنِي وَإِنْ بَكَى مُسْلِمٌ فِي الصِّينِ أَبْكَا نِي
وَمُضِرُّ رِيحَانَتِي وَالشَّامُ نَرْجَسَتِي وَفِي الْجَزِيرَةِ تَارِيخِي وَعُنْوَانِي

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩) من حديث رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَرَى بُخَارَى بِلَادِي وَهِيَ نَائِيَةٌ وَأُسْتَرِيحُ إِلَى ذِكْرَى خُرَاسَانَ
شَرِيعَةُ اللَّهِ لَمَّتْ شَمْلَنَا وَبَنَتْ لَنَا مَعَالِمَ إِحْسَانٍ وَإِيمَانٍ

٣- الإسلام دين الهدى والرحمة:

فالهدى شعاره والرحمة عنوانه، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»^(١).

٤- الإسلام دين شامل مفصل:

فهو دين يمتد طويلاً حتى يشمل الزمان إلى قيام الساعة، ويمتد عرضاً ليستوعب الخلائق في الأرض كافة! ويمتد عمقاً ليشمل الأولى والآخرة.
وهو دين يتناول كل شأن مفصلاً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وفي الحديث: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرَّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرَّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ»^(٢).

٥- الإسلام دين السماحة واليسر:

فكل تشريعاته وتوجيهاته تفيض سماحةً ويسراً، وتنفي كل عنت وحرَج، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الحاكم (٢١٣٦)، والبيهقي في الكبرى (٩٨٩١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٣٣٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمَحَةٍ»^(١)، وقال لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسَّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ»^(٢).

٦- الإسلام دين السَّعة والمرونة:

أ- فهو يبيح المحرمات عند الاضطرار:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ﴿وَلَا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ب- ويشرع الرخص عند المشقات:

قال ﷺ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١]

وقال سبحانه: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ»^(٣).

ج- ولا يؤخذ عند الأعذار القاهرة:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا

(١) أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَمَلَتْهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴿٢٨٦﴾
[البقرة: ٢٨٦].

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(١).
وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسَوَسْتُ، أَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ»^(٢).

٧- الإسلام دين المثالية والواقعية:

ففي التشريعات فرائض واجبة وسنن مندوبة، وفي الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»^(٣).

والإسلام يستجيب للحاجات الغريزية، ويضبطها، ويحملها على القيم العليا، ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مَثَلًا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وأخيراً فهذه شهادات لغير المسلمين مدحوا بها هذا الدين، واعترفوا بعظمته وتقدمه، وليس للمسلم أن يتكثر بذلك، غير أنها تقيم الحجة على غير المسلم، وتبرهن عملياً على صدق قوله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣]، والحق ما شهدت به الأعداء:

يقول منتجمري وات: «لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدينٍ مستقلٍ عن الدينين الأقدمين (اليهودية، والمسيحية)، ونقول عن حق: إنه بالفعل كان يفوقهما، أو أنه فعلاً

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



كان متفوقاً عليهما، أو أرقى منهما»^(١).

ويقول تولستوي: «ستعم الشريعة الإسلامية كل البسيطة؛ لائتلافها مع العقل، وامتزاجها بالحكمة والعدل»^(٢).

ويقول توماس كارليل: «لقد ظلت الرسالة التي دعا إليها هذا النبي سراجاً منيراً منذ اثني عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس، وهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين أكذوبة كاذب، أو خديعة مخادع؟!»^(٣).

فاللهم مَسْكُنًا بالإسلام، واجعله منتهى رضانا، واحفظنا به قائمين وقاعدين وراقدين، برحمتك يا أرحم الرحمين.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].



(١) الإسلام والمسيحية، لمونتجمري وات (ص ٣٣، ١٩١).

(٢) حكم النبي محمد، لتولستوي (ص ٤٢).

(٣) نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي، لعز الدين سراج (ص ٣٠).

الموعظة الثالثة

في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

[البقرة: ٣]

الحمد لله، هدى المؤمنين للإيمان بالغيب وحبّه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وقربّه، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، أما بعد:

فإن الإيمان بالغيب ركن الإيمان الركين، والدعامة الأساس التي تقوم عليها عقيدة المؤمنين؛ والغيب: مصدر غاب الشيء؛ إذا استتر عن العيون، وكل ما غاب عن الإنسان فهو غيب^(١).

والغيب اصطلاحاً: هو ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بدهة العقول، وإنما يُعلم بخبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فكل ما أخبر به القرآن الكريم والنبي العظيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما لا تهتدي إليه العقول؛ من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر، والنشر، والصراط، والميزان، والجنة، والنار، والملائكة، والجن، والكتب - وقيل: القضاء والقدر - فهو من الغيب.

(١) الصحاح، للجوهري (١/١٩٦).

أنواع الغيب:

الغيب نوعان: نوع مضى، ونوع هو آتٍ.

فالذي مضى: ما ساقه الله من خبر أنبيائه وأقوامهم وما وقع في الأزمان الماضية. والذي هو آتٍ: ما سوف يقع مما لم يقع بعد في الدنيا، أو في البرزخ، أو في الآخرة.

وينقسم الغيب إلى قسمين:

١ - قسم لا دليل عليه من النقل، أو العقل:

فلا تدركه العقول بمجرد ما، وفيه يقول تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ويقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعَتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضُ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٢ - قسم نُصِبَ عليه دليل نقلي أو عقلي:

وهو المراد بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، وفي هذا تدخل أمور كثيرة تتعلق بالله تعالى وصفاته، وما تضمنه حديث جبريل عليه السلام: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حكم الإيمان بالغيب:

الإيمان بالغيب أصل الإيمان وركنه الركين، وعموده الممتين، ويجب الإقرار به مطلقاً، ومن رده مطلقاً كفر - عياداً بالله.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان بجميع ما أنزله الله تبارك وتعالى»^(١).

تفاوت الخلق في الإيمان بالغيب:

أكثر الناس يقرُّون بالغيب، لكنهم يتفاضلون ويتفاوتون في الإيمان به، ومن اعتقد صدق الرسالة، وصحة الوحي جملة فقد آمن بالغيب جملة.

ومن اعتقد ما في الكتاب والسنة من الغيب تفصيلاً فقد ارتقى إيمانه من حيز الإجمال إلى التفصيل، ومن حمله اعتقاده هذا على العمل وترك الزلل فقد ارتقى إيمانه رتبة أعلى... وهكذا.

إيمان الجاهليين بالغيب:

كان الجاهليون يؤمنون بوجود الله، وأنه الخالق، وسجل ذلك القرآن عليهم، لكنهم أنكروا الوحي والرسالة والكتاب، وقالوا: إنما أنت مفتر؛ وقالوا: شاعر، وكاهن، ومجنون؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِثِرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ

(١) الجواب الصحيح، لابن تيمية (ص ١٣٧).

بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ [الفرقان: ٥]، واستعلنوا بالتكذيب، والجحود، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

أسباب إنكار الكفار للإيمان بالغيب:

١ - عدم الإحاطة بعلمه:

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]، والغيب لا تدركه حواسهم، فهم لا يصدقون ولا يؤمنون إلا بما أحاطوا به علمًا بعقولهم وأدركته حواسهم.

٢ - عدم وصول تأويله إليهم:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]، أي: وقوع حقيقة الشيء ومعانيته، كما قال تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالجاحدون لربهم لا يؤمنون إلا إذا رأوه، والجاحدون للملائكة لا يؤمنون إلا إذا رأوهم، والجاحدون لعذاب الآخرة كذلك، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وهم يطلبون ذلك صراحة، ويطلبون رؤية الآيات عيانًا، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

حقيقة الإيمان بالغيب:

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «حقيقة الإيمان بالغيب: التصديق التام بما أخبر به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح»^(١).

(١) تفسير السعدي (ص ٤٠).

وليس معنى الإيمان بالغيب: الإيمان بما هو معدوم؛ بل بما هو غير مشهود فقط، وليس الإيمان بالغيب الإيمان بما هو غير معقول؛ بل هو الإيمان بما لا يقطع العقل باستحالته وامتناعه، وليس الإيمان بالغيب الإيمان بما هو خيالي وخرافي؛ بل هو الإيمان بما دل عليه الدليل الشرعي.

قال سبحانه: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

فالغيب ليس مقابلاً للموجود، ولا للمعقول، ولا للواقعي؛ وإنما هو مقابل للشهادة، أي: الشيء الحاضر المشهود.

متى لا ينتفع الإنسان بالإيمان بالغيب؟

إذا تحول الغيب إلى شهادة لم ينفع الإيمان، كما وقع عند معاينة فرعون الغرق؛ قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا آدَرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وهو عند الغرغرة قبل الموت، قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وعند طلوع الشمس من مغربها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا تَكُنَّ ءَامَنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فضل الإيمان بالغيب:

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي لا إله غيره، ما آمن مؤمن بإيمان قط أفضل من إيمان بغيب»^(١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١ / ٣٦).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والإيمان بالغيب أجلُّ المقامات على الإطلاق»^(١).

وقال: «الإيمان بالغيب هو الإيمان النافع»^(٢).

والإيمان بالغيب أول صفات المتقين والمؤمنين:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

أي: يقرون بما غاب عنهم مما أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أخبر الله به من أمور الغيب.

والقرآن هو أعظم الكلام ومحلّه في أعظم محل، وهو قلوب المتقين، فهو هدى للمتقين، والدليل على تحققهم بالتقوي في قلوبهم هو إيمانهم بالغيب.

وخشية الله بالغيب من أعظم ما مُدِّحَ به المؤمنون:

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [المُلك: ١٢].

وقال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنْ أَتْبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وفي التفسير: أنهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس لعلمهم باطلاعه عليهم^(٣).

(١) طريق المهجرتين (١/ ٤٣٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير القرطبي (١/ ١٦٤).

وقيل: بالغيب، أي: بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين.

وَبِالْغَيْبِ آمَنَّا وَقَدْ كَانَ قَوْمُنَا يُصَلُّونَ لِلْأَوْثَانِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ
انفراد الله بعلم الغيب:

قال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾
[النمل: ٦٥].

وقد قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
[الأنعام: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والكاهن العَرَّاف المدَّعي عِلْم الغيب كافر، منهِّي عن إتيانه، أو سؤاله، وفي الحديث: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»^(١).

مفاتيح الغيب الخمسة:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»^(٢) [لقمان: ٣٤].
والمفاتيح: الخزائن.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من حديث صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٨).

وفي رواية عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدِّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

وفي قول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أخبرني عن الساعة؛ فقال: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(٢)، فمعناه: إن الناس كلهم في وقت الساعة سواء، وكلهم غير عالمين به على الحقيقة؛ ولهذا قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله؛ ثم تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وهذه مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله.

وقد جاء عن ابن مسعود: «أُوتِيَ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَفَاتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ خَمْسٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»^(٣).

- ومن ضَعُفَ إيمانه بالغيب أنكر بعض عقائد أهل الإسلام، مثل:

- ١- عذاب القبر ونعيمه: أنكرته المعتزلة.
- ٢- رؤية الله تعالى يوم القيامة: أنكرته المعتزلة والجهمية.
- ٣- حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنكرته المعتزلة.
- ٤- الشفاعة لأهل الكبائر: أنكرتها المعتزلة والخوارج.

ومن غلا في الإيمان بالغيب من غير برهان؛ آمن بالخرافات والأوهام، كما عند

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٥٩).

غلاة الصوفية والباطنية، الذين آمنوا بمخاريق ومعاريج لا حقيقة لها، وبنوا على ذلك علومًا باطلة!.

ومن أوصاف المتقين: الإيمان بالغيب؛ لأن الإيمان بالمُشاهد المحسوس ليس بإيمان؛ لأن المحسوس لا يمكن إنكاره.

ومن آمن بالغيب؛ راقب الله في السر والعلن، وعلامة المراقبة: «إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله»^(١).

- ومن ثمرات وفوائد الإيمان بالغيب:

* يُكسب العبد الرضا واليقين في الدنيا.

* المغفرة والأجر الكبير في الآخرة.

* سلامة القلب من الأمراض.

* الشعور برقابة الله تعالى على العبد، وأنه مطلع على جميع حركاته وسكناته، فيبعثه ذلك على الخشية منه.

* الاستقامة على أمر الله تعالى بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي.

* الشعور بالطمأنينة والأنس، فيكون ذلك دافعًا إلى الصبر والثبات.

فاللهم كما آمنا بك ولم نرك، وكما آمناً بجنتك ولم نرها؛ اجعلنا من أهلها، واجمعنا فيها بأهلينا وآبائنا وأمهاتنا وذرياتنا، إنك أكرم مسؤول، وأعظم مأمول.



(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٦٥).

الموضع الواجب

في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[البقرة: ٢]

الحمد لله رب العالمين، شرح صدور المؤمنين، وأسكنها التقوى، وجعلها خير زاد فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وصلى الله وسلم على إمام المتقين وخاتم المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن القرآن هُدى في نفسه للمتقين، بل هو كذلك للناس أجمعين، وهدايته تعم كل ما يحتاج العبد إلى تلمس الهداية فيه ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ولفظ (المتقين) ورد في كتاب الله في ثلاثة وأربعين موضعاً، منها ستة وعشرون موضعاً في القرآن المكي، وسبعة عشر موضعاً في القرآن المدني.

ومن المدني: هذا الموضع: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١-٢﴾.

ومن المكي: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧].

وأما لفظ (المتقون) فورد في كتاب الله في مواضع ستة فحسب، وهي إما بياناً

لصفاتهم، أو وصفاً للجنة التي وُعدوا بها وذكرًا لها؛ وقد جاء في ثلاث آيات مكية، وثلاث مدنية.

فالمكي منها:

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۖ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۖ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥].

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

وأما المدني:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَاتِهِكَ وَالْكُنْبِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۗ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وأما لفظ (التقوى) فقد ورد في القرآن الكريم خمس عشرة مرة.

وأما الأمر بالتقوى فقد جاء في القرآن بلفظ ﴿اتَّقُوا﴾ في تسعة وستين موضعاً.

﴿فَلْيَتَّقُوا﴾: ورد مرة واحدة.

﴿اتَّقِ﴾: ورد في ثلاثة مواضع.

﴿وَلْيَتَّقِ﴾ - بلام الأمر -: ورد مرتين.

﴿فَاتَّقُونِ﴾ - بضمير المتكلم -: في خمسة مواضع.

﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ - بضمير الغائب -: في أربعة مواضع.

﴿وَأَتَّقِينَ﴾ - لجماعة الإناث -: ورد مرة واحدة.

وقد تكررت التقوى بلفظها ومادتها في كتاب الله تعالى مائتين وتسعاً وعشرين مرة.

معنى التقوى لغتياً:

قال الراغب: «الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره»^(١).

وفي اللسان: «وقيت الشيء أقيه؛ إذا صنته وسترته عن الأذى»^(٢).

والمتقي: اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى؛ والوقاية فرط الصيانة^(٣).

والتقوى هي الاسم من قولهم اتقى؛ والمصدر: الاتقاء؛ وكلاهما من مادة (وقي)،

وهي تدل على دفع شيء عن شيء بغيره.

معنى التقوى شرعاً:

وقد ورد لفظ التقوى ومشتقاته كثيراً في الحديث، ومنه:

«اتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»^(٤).

(١) المفردات في غريب القرآن (ص ٨٣٣).

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة (وقي).

(٣) مفاتيح الغيب، للرازي (١/ ٣٨٠ - ٣٨٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

و«اتَّقُوا الظُّلُمَ؛ فَإِنَّ الظُّلُمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).
و«اتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»^(٢).
و«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(٣).

معنى التقوى اصطلاحاً:

سأل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كعبَ الأحبار عن التقوى، فقال: «هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم؛ قال: فما عملت فيه؟ قال: تشمرت وحذرت؛ قال: فذاك التقوى»^(٤).

وسأل رجل أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما التقوى؟ فقال: «هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم؛ قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلتُ عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه؛ قال: ذاك التقوى»^(٥).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تمام التقوى أن يتقي العبد الله حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشيةً أن يكون حراماً حجاباً بينه وبين الحرام»^(٦).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات.

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) تفسير الثعلبي (١/ ١٤٢).

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٩٦٢).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٩/ ٢).

وَاصْنَعْ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَزْ
ضِ الشُّؤْلِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى^(١)

وقال أيضًا: «أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه - من غضبه وسخطه وعقابه - وقاية تقيه من ذلك، وهي فعل طاعته، واجتناب معاصيه»^(٢).

ومن أحسن ما عرّفها به السلف ما يلي:

ما رُوِيَ عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «المتقون اتقوا ما حُرِّمَ عليهم، وأدوا ما افْتَرَضَ عليهم»^(٣).

وقال طلق بن حبيب: «التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نورٍ من الله؛ تخاف عقاب الله»^(٤).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا من أحسن ما قيل في حدِّ التقوى، فإن كل عمل لا بد له من مبدإٍ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة، ولا الهوى، ولا طلب المحمدة والجاه وغيرها؛ بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب»^(٥).

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٤٧٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٦٨).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٧٠).

(٤) أخرجه ابن بطّة في الإبانة (٢/ ٥٩٨).

(٥) الرسالة التبوكية (ص ١٥ - ١٧).

وتحقيق القول في معرفة التقوى وحقيقتها وصفات أهلها من المهمات العظام؛ وذلك لأمر؛ منها:

١- أن لا يزال العبد المتخلف عن صفات أهلها مزرئاً على نفسه، وذاماً لها بما يحميه من العجب وما فوقه، ويحمله على الاجتهاد وبذل الوسع في إدراك ما فاته.

٢- أن لا يزال العبد منكسر القلب، منظرًا بين يدي الرب، مقرًا بعجزه، ومتحققًا من فقره وذلته بين يدي الله تعالى، يتشهد منازل السابقين وهو في زمن المنقطعين، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين.

٣- عسى أن تنهض همة العبد في الثبوت والتعلق بساقة القوم، ويلحق بآخر قافلته والزمن بعيد، أو يموت وهو على طريقهم سائر، وإن لم يبلغ إدراكهم، أو لاحقًا بهم.

٤- أن لا يزال العبد لاهجًا بالدعاء راغبًا في رحمة من وسعت رحمته كل شيء، سائلًا الله بصدق: أن يهيئه لأعمال المتقين، وأن يستعمله بعمل المقربين، ولعله أن يصادف ساعة إجابة لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه، فلا يتعاضم على ربنا شيء من العطاء، وهو المنان سبحانه.

٥- العلم بالتقوى وأهلها أشرف العلوم بعد التوحيد، ومن تافت نفسه لهذا العلم دل على شرفها لتعلقها بأشرف العلوم، فإذا حصل الشطر - وهو العلم - فقد بقي الشطر الثاني - وهو العمل - فلعل نفسًا تتهيأ لعمل وحال شريف بعد تحصيلها لعلم شريف.

٦- من كان هذا العلم همه ومطلوبه؛ فلا يمتنع أن ينال - في لحظة من حياته، أو برهة من عمره - طرفاً منه، وأن تحدثه نفسه بالوصول إلى تلك الحال الجليلة.

٧- وقد يتعلم الإنسان علمًا فيصف على لسانه لغيره منه شيئًا ينفعه الله به، سواء كان قاصدًا لذلك، أم لم يكن كذلك، والله تعالى واسع الفضل، ولا يضيع مثقال ذرة من عمل، أو علم نافع.

فإذا عرضنا الآن لبحث حقيقة التقوى وأركانها ومقوماتها وصفات أهلها وثمراتها العاجلة والآجلة وطريق تحصيلها، وحال أهلها معها؛ فالأمر كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم، وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تعرّف منزلتهم والعلم بها، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم»^(١).

فإذا استبان أمرٌ علميٌّ بشأن التقوى وأهلها؛ فيأكد أن تنخدع بأن العلم بهذا العمل، وأن العمل كالتحقق فيه والرسوخ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وإياك أن تظن أنك بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله؛ هيهات ما أظهر الفرق بين العالم بوجود الغنى وهو فقير وبين الغنى بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل»^(٢).

فإلى بحث وتحقيق، نسأل الله التوفيق:

اتفقت كلمات العلماء بهذا الشأن على أن ركن التقوى الركين هو ترك المحظورات.

لكن المحظورات منها كفر وشرك، ومنها كبائر وفسق، ومنها بدعٌ وأهواء، ومنها صغائر ومحقرات..

(١) طريق الهجرتين (ص ٣١٩) باختصار.

(٢) المصدر السابق (ص ٢٠٥ - ٢٠٦).

ولا اختلاف على وجوب اتقاء المحظورات كافة، والتوبة منها عامة.

ثم جرى الخلاف في الصغائر؛ هل من وقع فيها يخرج من التقوى، ويُحرم من اسم المتقين؟! المتقين؟! المتقين؟!

فالنزاع فيمن لم يتوقَّ الصغائر هل يستحق اسم التقوى؟!!

ذهب طائفة إلى أن مَنْ واقع الصغائر خرج من اسم التقوى؛ وذلك لأمر:

- أن الصغائر يتناولها الوعيد، فهي آثام وذنوب وسيئات، وهي وإن كانت صغائر، أو محقرات، إلا أنهم قد يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه.

- وأن الإصرار عليها يحيلها إلى كبائر.

- وأن في الحديث: «لَا يُلْعَقُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ»^(١).

وإذا كان هذا فيما لا بأس به من الحلال، فيكون الوقوع في الحرام من غير توبة قاطعاً سبيل المتقين، مانعاً من وصف من تلبس بالصغائر بالتقوى.

وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّهُمْ الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللَّهِ الْعُقُوبَةَ فِي تَرْكِ مَا يَمِيلُ إِلَيْهِ الْهَوَى، وَيَرْجُونَ جَنَّتَهُ بِالتَّصَدِيقِ بِمَا جَاءَ مِنْهُ»^(٢).

ومما تُعرَّف به التقوى: الخشية، ولا فرق في الخشية بين الصغائر والكبائر^(٣).

وذهب الرازي إلى أن التقوى أُطلقت في كتاب الله وأريد بها خمسة أمور؛ هي: الإيمان، والتوبة، والطاعة، وترك المعصية، والإخلاص.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥) من حديث عطية السعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) التفسير الكبير، للرازي (٣٨٢/١).

(٣) المصدر السابق.

- ١ - أما الإيمان فقوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦]، أي: التوحيد. ومثلها في المعنى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣].
 - ٢ - وأما التوبة ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦]، أي: تابوا.
 - ٣ - أما الطاعة ففي قوله تعالى: ﴿أَن أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].
 - ٤ - أما ترك المعصية ففي قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، أي: لا تعصوه.
 - ٥ - وأما الإخلاص، ففي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] أي: من إخلاص القلوب؛ وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].
- وأما ابن رجب رحمه الله فيقول: «فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه وغضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معصيته»^(١).
- ثم ارتفع بالتقوى في معناها منزلة أخرى، فقال: «ويدخل في التقوى الكاملة: فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات»^(٢).
- وفي الحديث: «فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ»^(٣).
- وقد أدخل جمع من العلماء في التقوى ترك ما لا بأس به من الحلال.

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فكأن التَّرك في التقوى هو: للإشراك، وللابتداع، وللمعاصي كبائرهما وصغائرهما، وللشبهات، ولما يُخاف ضرره من الحلال!

وإذا ثبت هذا فإن الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ نَصَّ على أمر آخر فوق هذا، فقال: «إن التقوى تطلق في القرآن على ثلاثة أشياء:

١ - الخشية والهيبة: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٢ - الطاعة والعبادة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال ابن عباس: (أن يطاع فلا يُعصى) (١).

٣ - تبرئة القلب عن الذنوب؛ وهي حقيقة التقوى، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].
فذكر الطاعة والخشية، ثم ذكر التقوى.

فعلمت بهذا أن التقوى معنى غير الطاعة والخشية، وهي تبرئة القلب عن الذنوب» (٢).

ومع عدم التسليم بأن حقيقة التقوى تبرئة القلب من الذنوب إلا أنه داخل فيها.
وعليه؛ فإن التقوى تشمل: اجتناب المنهيات، وفعل المأمورات، وتنزيه القلب عن مخالفة إرادة الله، وتعظيم شعائر الله.

والتقوى جماع أمر النجاة في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن الله لا سواه ﴿هُوَ أَهْلُ

(١) الدر المنثور، للسيوطي (٢/ ٢٨٣).

(٢) منهاج العابدين، للغزالي (ص ١٢٨).

التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿[المدثر: ٥٦]﴾ فهو حقيق بأن يُتَّقَى، وجدير بأن يُخاف ويُرجى، وهو حقيق بأن يغفر إذا استُغْفِرَ، وأن يرحم إذا استُرْحِمَ.

فمن عرف أن الله أهل لأن يُتَّقَى؛ أخلص في تقواه، وجعلها أعظم قربة يتقرب بها إلى الله؛ قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].
فالأصل في كل العبادات أن تورث التقوى، وأن التقوى لا تتحقق إلا إذا تحقق الإخلاص لله.

فاللحوم والدماء تراد لذاتها؛ وإنما لتدل على التقوى، وهي لا تُقبل إلا إذا كانت صادرة عن تقوى صالحة، وإخلاص كامل! وهذا لا يتأتى إلا بأن يُتَّقَى الله حق التقوى.
ومحل التقوى: القلوب الصالحة، «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شُعَيْرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].
وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

فهاتان الآيتان دالتان على أن التقوى في القلوب مكنونة، وفي الصدور محفوظة، وأن قلوب الأبرار مصطفاة ومهيأة ومعدة لتقواه، فالتقوى هبة الله للقلوب المصطفاة، يختار لها من اختبرهم فمحصهم، ومن شوبهم خلصهم.

وهبة التقوى سبب الأجر ومغفرة الوزر؛ ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّقْوَى

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ^(١).

وفي هذا دلالة على أن من أهم مظاهر التقوى: الكف عن حرمت أهل الإسلام، وعدم التعدي عليهم لا بالقلب ولا بالجوارح!

ولعلنا ننتهي إلى تعريف للتقوى بأنها: تعظيم شعائر الله بفعل المأمورات، واجتناب المنهيات، والورع عن الشبهات، وتنزيه القلب عن مخالفة إرادة الرب.

أو هي: حالة قلبية تحمل على تعظيم شعائر الله، وعدم مخالفة إرادة الرب؛ بفعل المأمورات، وترك المنهيات، والورع عن الشبهات.

ثمرات التقوى:

جعل الله ﷻ للتقوى أطيب الثمرات في العاجل والآجل، ووعد أهلها بأحسن العواقب في الدنيا والآخرة.

أولاً: الثمرات العاجلة للتقوى:

١ - تفريج الكربات وتيسير الأمور:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال ابن عباس: «مخرجاً ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة»^(٢)، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/١٥٩).

وقد ورد أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: عوف بن مالك، كان له ابنٌ أسره المشركون، فكان أبوه يأتي النبي ﷺ فيشكو إليه حال ابنه، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر ويقول له: «إنَّ اللهَ سيجعل لكَ فرجاً»، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلتَ ابنه من القيد، فمرَّ بغنم للعدو فاستاقها فجاء بها إلى أبيه، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]^(١).

٢- التوفيق إلى العلم النافع وحصول البصيرة في الدين:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قال البيضاوي: «كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث؛ لاستقلالها، فالأولى حثٌ على التقوى، والثانية وعدٌ بإنعامه، والثالثة تعظيمُ شأنه»^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَنَفَّوْا لِلَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، والفرقان هو النور الذي يُقَدِّف في قلب المتقي فيفرق به بين دقائق الشبهات التي تلتبس على كثير من الناس.

٣- محبة الله ﷻ ومحبة ملائكته وأولياء الله الصالحين للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وفي الصحيحين: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ؛ فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ؛ فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٣ / ٤٤).

(٢) تفسير البيضاوي (١ / ١٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

٤ - معية الله ونصرته وتأييده وحفظه:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وهي معيته بالتأييد والنصر والتسديد.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، قال ابن كثير: «يرشدهم الله تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»^(١).

٥ - نزول البركات من السماء وخروج الخيرات من الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٦ - حفظ الذرية الضعاف بعد موت عائلهم:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، فمن أراد حفظ عياله من بعده فليثق الله حتى يحفظهم الله من بعده ويغشاهم بعنايته، قال سعيد بن المسيب لابنه: «يا بني؛ إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك، وتلا الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٩).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٤٢)، ذكره الثعالبي في التفسير (٦/ ١٨٨).

ثانياً: الثمرات الآجلة للتقوى:

١ - تكفير السيئات وعِظَم الأجر في الجنات والنجاة من النار:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقُ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]، قال ابن كثير: «يُذهب عنه المحذور، ويُجزل له الثواب على العمل اليسير»^(١).

وقال تعالى - في بيان من يصدر عن النار بعد الورود -: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿[مريم: ٧٢، ٧١].

٢ - تَسَنُّمُ المرتبة العليا فوق الخلق يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]، فهم في عليين، والكفار في أسفل سافلين.

٣ - نيل الدرجة العليا من الجنة:

قال تعالى: ﴿لَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٤ - أهل التقوى يحشرون إلى الجنة ركباناً وزمراً:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]، قال ابن كثير: «يحشرونهم يوم القيامة وفدًا إليه، والوفد هم القادمون ركباناً، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ١٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٦٣).

٥- التقوى تجمع بين الأحباب، وتنزع من الصدور ما كان من غلّ الدنيا:

قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فمن
بركة التقوى أن الله ينزع من القلوب ما قد يعلق بها من الضغائن والغل، فتكمل المودة
وتتم الصحبة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا تحقّقاً بالتقوى يرضيه، اجتناباً
لمناهيهِ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.



الموعظة الخامسة

في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

[البقرة: ٣]

الحمد لله ربّ العالمين، جعل الصلاة قرة عيون الموحدين، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد الأمين، وآله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

فإن الصلاة لذة أرواح الموحدين، وبستان العابدين، وسكينة نفوس الخاشعين، ومحكُّ أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمة الله المهداة إلى عباده المؤمنين.

والحديث عن الصلاة وإقامتها حديث محبَّب إلى النفس، لا تملهُ نفسُ مؤمنٍ أبداً، والله تبارك وتعالى عطف على الإيمان بالغيب إقامة الصلاة، والإيمان بالغيب هو ركن الإيمان الركين، وهو عمود الاعتقاد في كل دين.

ثم إن الله تبارك وتعالى بعد الإيمان بالغيب جاء بإقامة الصلاة وهي رأس الشعائر التعبدية العملية، فما مقصود إقامة الصلاة، وما معناها؟

الحديث في ذلك طويل ذو شجون، لكننا نقتصر في هذا على مقاصد إقامة الصلاة.
فلماذا أمر الله تعالى بإقامتها ولم يأمر بأدائها، وما هي المقاصد الشرعية التي تقف
خلف الأمر بإقامة الصلاة؟

المقصد الأول:

الذي لا ينبغي أن يغيب عن عقل وقلب ووجدان كل مسلم: أن الصلاة إنما
شُرعت لتحقيق التقوى؛ إذ كل العبادات كذلك تقرب من الله، وإقامة التقوى والقرب
من الله هو غاية هذه الصلاة، يقول بعض علمائنا: «مقصود العبادات كلها التقرب إلى
الله»^(١)، ويعني: التقرب إلى الله ﷻ بالقرب من جوده وإحسانه، الَّذِينَ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى
بهما عباده المؤمنين، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، والقرب والتقرب من الله إنما يكون بالطاعة،
والتعظيم، والخضوع؛ وقرب الله من خلقه على نوعين:

قرب عام: وهو قربهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعْلَمُهُ من خلقه، فهذا قرب عام لجميع الخلق،
وهو قرب العلم والإحاطة والقدرة، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ
نُؤْسُوْسٍ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقرب خاص: وهو قربهِ تعالى بالجود والإحسان والمعية لأهل الإيمان؛ وهذا
خاص بالمؤمنين، ودليله: قول الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطْعَمُهُ وَاَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]،
فإن السجود فيه قربٌ للعبد من ربه؛ ذلك أن العبد كلما انخفض ارتفع؛ كلما انخفض
ببدنه ارتفع بقلبه وروحه منزلةً ومكانةً عند ربه.

فالصلاة تقرب إلى الله، وأشرف مواضعها موضع يضع فيه الإنسان جبهته لله ﷻ.

(١) مقاصد الصلاة، للعز بن عبد السلام (ص ٧٥).

المقصد الثاني:

مناجاة الله تعالى، وتجديد العهد به سبحانه جل في علاه؛ ولذلك جعلت لها مواقيت متقاربة؛ لئلا يبعد العبد عن ذكر ربه؛ ولئلا يطول العهد بالعبد عن لقاء ربه، قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ - متعرِّضاً لمقاصد الصلاة وفوائدها المشروعة - : «إن مقصودها الأول: هو الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له سبحانه»^(١)، ويقول: «وذلك أن الصلاة - مثلاً - إذا تقدمتها الطهارة أشعرت بتأهبٍ لأمر عظيم، فإذا استقبل القبلة أشعر التوجه بحضور المتوجَّه إليه، فإذا أحضر نية التعبد أثمر الخضوع والسكون، ثم يدخل فيها - أي: في الصلاة - على نسقها بزيادة السورة خدمة لفرض أم القرآن؛ لأن الجميع كلام الرب المتوجَّه به إليه، وإذا كبر وسبح وتشهد، فذلك كله تنبيه للقلب وإيقاظ له أن لا يغفل عما هو فيه من مناجاة ربه، والوقوف بين يديه، وهكذا إلى آخرها، فلو قدَّم قلبها نافلة؛ كان ذلك تدریجاً وتدريباً للمصلِّي، واستدعاء للحضور - أي: لحضور القلب - ولو أتبعها نافلة أيضاً لكان خليقاً باستصحاب الحضور في الفريضة»^(٢).

ولذلك فإن للصلاة أثراً عظيماً في تزكية النفس، وفي بُعدها عن الفواحش والمنكرات، والله تبارك وتعالى نبّه إلى ذلك غير مرة في كتابه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

المقصد الثالث:

تحقيق التوحيد والإيمان؛ إذ إن الصلاة تشتمل على معانٍ عظيمة وأفعال جليلة،

(١) الموافقات، للشاطبي (٣/١٤٢).

(٢) المصدر السابق (٢/٤٣).

فمن جهةٍ: هي تحقق التوحيد، فالمصلي يُظهر ذلَّه وخضوعه وافتقاره لربه، يدعوه ويستغفره، يفرغ إلى الصلاة يرجو الخير وسلامة العاقبة، يعوذ بربه من الشر والهلاك، فهو يتصل بالله معلناً فقره وحاجته، ومعلناً شكره وامتنانه، عالماً مستشعراً أن ذلك بيد الله وحده، فلا يقصد غيره في ذلك؛ وهذا حقيقة التوحيد؛ أن يوحد وجهته، وأن يتجه إلى ربِّ واحد أحد سبحانه جل في علاه، يتوجه إليه بالذلة والاستكانة، وبالسؤال والطلب، وبالاستغفار وطلب العفو والمعونة؛ هكذا تدل الصلاة على التوحيد.

ومن جهةٍ أخرى: هي جامعة لأركان الإيمان الثلاثة: القول، والعمل، والاعتقاد؛ فالاعتقاد والتصديق لا يفارق المسلم في جميع أوقاته وفي كل أحواله، ما دام عقله باقياً فهو ملازم له حال صلاته، والقول يتمثل بقراءة القرآن والذكر والتشهد ونحو ذلك، والعمل يتمثل بالقيام والركوع والسجود والقعود، ونحو ذلك.

لهذا سَمَّى الله تعالى الصلاة إيماناً، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، دليل ظاهر على أن الصلاة تجمع الإيمان كله، تجمع الإيمان بعقيدته، وتجمع الإيمان بأقواله، وتجمع الإيمان بأعماله، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتكم تجاه بيت المقدس قبل أن تحوّل القبلة.

المقصد الرابع:

إقامة ذكر الله تعالى، فالصلاة جامعة لأنواع الذكر؛ فالذكر بالعمل حاصل بأداء الفرض، وفي القلب حاصل حيث إن قلب المصلي الخاشع موصول متعلق بمن يقف بين يديه ويناجيه.

وأما بالقول فجميع الأذكار القولية - تقريباً - تشتمل عليها الصلاة؛ قراءة القرآن في القيام، التكبير عند الانتقال، التحميد عند الرفع من الركوع، التسبيح في الركوع

والسجود، التشهد في الأركان، والدعاء في قراءة الفاتحة وفي السجود، وبين السجدين والتشهد الأخير، والاستغفار مكانه بين السجدين، وبعد الصلاة مباشرة، وغير ذلك من الأذكار العظيمة التي اشتملت عليها الصلاة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ [الأعلى: ١٤-١٥].

وذكر الله تعالى هو المقصد الأول لكل شعائر الدين، والذكر هو خير الأعمال وأزكاها وأفضلها، وهو من أجل الطاعات، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته، وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والذكر منشور الولاية، الذي من أُعْطِيَ اتصل، ومن مُنِعَهُ عَزِلَ؛ وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقه انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي بينهم وبين علام الغيوب»^(١).

وقد أخبر الله سبحانه بأن ذكره أكبر من كل شيء، فقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ وذلك لأنه أفضل الطاعات، بل إنه هو المقصود بالطاعات كلها، فهو سرُّها وروحها، وبه تتحقق بركة الطاعة من تزكية للنفس، وانسراح للصدر، وبُعدٍ عن المعاصي وغير ذلك من الفوائد العظيمة الجليلة.

ولذا لم يقتصر الله تعالى على الأمر بالذكر؛ بل أمر بالإكثار منه، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٣٩٥).

لِذِكْرِي ﴿طه: ١٤﴾، إقامة الصلاة إنما هي لتحقيق ذكر الله تبارك وتعالى، فهي من أجل أن نذكره فلا ننساه.

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، فأوضح أن زكاة النفوس وسمو الأرواح هو أثر من آثار ذكرنا الله تعالى في الصلاة.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ترغيب منه سبحانه بذكره في الصلاة وغيرها، وبيان لفضل هذا الذكر ومنزلته.

وقد جعل أعظم ما في الصلاة من منافع هو ذكر الله تعالى، فجعل الذكر أفضل من كل شيء، فقال سبحانه: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

المقصد الخامس:

تهذيب النفس، وتركية الخلق، فمن أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها: أنها تصلح قلب صاحبها، وتترك فيه من الآثار الطيبة ما يقبل معه على الطاعة والعبادة، وينفر معه عن المعاصي والمخالفات، كما في الآية السابقة: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل - أو تعدم - رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها والمحافظة عليها - على هذا الوجه - تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها.

وتم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر؛ وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عבודيات الجوارح كلها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(١).

وفي المقابل فإن من أضاع الصلاة وضيع حق الله فيها؛ فإنه يضل باتباع الشهوات ولا بدّ، فالصلاة تنهى عن اتباع الشهوات وغشيان الفواحش، وتضييعها سبب لغشيان الفواحش والمنكرات، كما قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

فالصلاة عمود الدين، ومن أضاعها أضاع الدين، وقد كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عماله: «إن أهم أموركم - عندي - الصلاة، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لسواها أضيع»^(٢).

وبالجملة فإن مقاصد الصلاة كثيرة عديدة لو تدبرها المسلم ما سهى في صلاته، ولو تأملها المؤمن لانتفع بصلاته، ولما شرد ذهنه، ولما خرج بروحه عن صلاته.

نسأل الله تعالى أن يُحسن لنا الصلاة، وأن يتقبل منا الذكر، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته؛ إنه جواد كريم، بَرُّ رؤوف رحيم، والحمد لله رب العالمين.



(١) تفسير السعدي (ص ٦٣٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٣٨).

الموعظة السادسة

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا
كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

الحمد لله الذي فرض الصيام احتفاءً بالقرآن، وتعظيمًا للفرقان، ونجاةً للإنسان
من ذنب الشَّبَعِ والشَّرِّه والبَطَرِ، وغلبة الشهوات والعصيان!
وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا العدنان، وعلى آله وصحبه ما تتابع الملوان؛ أما
بعد:

ففي آية الصوم من لطيف الوعظ والتذكير ما يثير الدهشة، ويستوجب الفكرة!
وهذه طائفة لطائف وجماليات في التبيان، وكمالات في تشريع الرحمن!
أولاً: الصوم عبادة شاقّة ميسرة:

١ - فالصوم - على مشقته - يسره الله، قال تعالى في نفس سياق إيجاب الصوم:
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فكأنه من إرادة اليسر
في تشريعه، وفي أحكامه؛ والشرعية يسر كلها رحمة كلها.

٢- وحيث جاء فرض الصوم جازماً، وإيجابه حازماً؛ فإن الله تعالى أنس المؤمنين بنداؤه لهم خاصة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾! وهو خطاب ترغيب وتحبيب، وخطاب شحذٍ للهمة، ودعوةٍ للأموال المهمة! كمناذاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدلهمة أهل بيعة الرضوان، بقوله للعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نَادِ أَصْحَابَ السَّمَرَةِ»^(١).

٣- ثم جاء فرضه بالفعل مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله؛ لتخفيف مشقة التكليف، وذلك لما في لفظ الجلالة من المهابة.

٤- وزاد التخفيف بالإعلام بأن فريضة الصيام يشارك العبد فيها كلُّ نبي أرسله الله، وكلُّ أمة سبقت في كون الله، فهذه شريعة قديمة، وشعيرة ماضية، وإذا صام من سبقنا فليكن صيامنا من صيامهم أكمل، وليكن عملنا فيه من عملهم أفضل!

٥- ولعظيم ثمرته - وهي التقوى - تخفُّ النفوس إليه، وتتسابق في القيام به، رغبة في تحصيل رتبها، واستشراقاً لعظيم ثوابها.

٦- ثم جاء التخفيف على الأنفس من شأنه، والتقليل لعدده، فقال سبحانه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، فهي سريعة الانقضاء، وما يلبث شهر الصائمين أن يدخل حتى ينقضي، فتدمع لفراقه عيون وقلوب المتقين!!

٧- ثم إن فرضه للقادر، فمن تحقق عذرُه بسفر أو مرض؛ فقد جاز له الفطر؛ تخفيفاً وتيسيراً في القضاء، ومن تعذر عليه القضاء فعليه الكفارة فحسب بالإطعام.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِكُمْ أَيْسَرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴿البقرة: ١٨٥﴾.

٨- ورد أن الصيام حصل تشريعه في الأمة بتدرّج، فكان مخيراً فيه بين الصيام والإطعام، ثم وجب مطلقاً من غير عدد محدد، ثم ثلاثة أيام من كل شهر، ثم جاء فرضه كاملاً، وفي هذا إعانة وإرفاق.

٩- ربط الله تعالى بالصيام ثواباً عظيماً وفضلاً جزيلاً لم يُحدِّد بحدٍّ، ولم ينتهِ إليه عدٌّ؛ وإنما هو ثواب ممدود غير محدود ولا معدود!.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي؛ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ»^(١)، وهذا يهون المشقات، ويسهل الصعوبات؛ لما ينتظره الصائم من الفضل والمكرمات! فإذا كان الصيام موعوداً صاحبه بمغفرة ذنبه كلما صام، أو قام، أو أدرك ليلة القدر، منتظراً عند صيامه، أو فطره عتق رقبته من النار، وملتمساً شفاعَةَ الصيام يوم حشره ونشره، وأن يأخذ بيده إلى باب الريان!

إذا كان كل ذلك من ثوابه فقد سهل أمره على النفوس جدّاً، وحرصت عليه أبداً!

١٠- وَمِنْ أَعْجَبَ مَا يَدُلُّ عَلَى يُسْرِهِ: دموع الفراق عند لحظات الوداع، وقرب نهاية الشهر الكريم حين يدعو الداعي: اللهم أعد علينا رمضان أعواماً عديدة وأزمنة مديدة، ولا تجعل هذا آخر العهد برمضان.. ونحوها مما يدل على حسرة الفراق، وخوف الفوات..

(١) أخرجه مسلم (١١٥١).

فيا مَنْ سيأتي آخر الشهر باكياً على لوعة الفراق، متحسراً على التفریط في الصالحات؛ هذا أوان أوّل له فاجهد واعمل؛ حتى لا ترى نفسك نادماً في آخره، راغباً في عودته وهيهات!.

ثانياً: القرآن سبب تشريف الزمان:

نزول القرآن في رمضان سابق على فرض الصيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

١ - لقد شُرفَ زمان رمضان بتنزل القرآن، كما شُرف من قبل بتنزل الكتب الإلهية التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم، ولأجل تلك الخصوصية شرع فيه الصيام تعظيماً للشهر وتشريفاً من الرب الكريم.

٢ - عناية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرآن في رمضان لا مزيد عليها، حتى كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَام يدارس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن في رمضان، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض القرآن عليه في كل رمضان عرضة، فلما كانت السنة التي توفي فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرض القرآن على جبريل عرضتين^(١)، وهذا من مستند مَنْ استحب ختم القرآن في رمضان.

٣ - تنزّل القرآن ابتداءً في رمضان؛ قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وفي رمضان أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة مباركة، هي ليلة القدر.

٤ - تحصيل الأجر على العناية بالقرآن له جهات متنوعة، منها:

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أ- كثرة المقروء: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الـ﴾ حَرْفٌ؛ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا م حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(١)، فمن كان للقرآن أقرأ؛ كان أوفر وأكثر أجرًا!

ب- الوقت الذي يقضيه المسلم في القراءة: فكلما طال وقت القراءة كثر الأجر والثواب؛ لأنه مظنة الإحسان والإيتقان، والتجويد والترتيل، مع التدبر والتفكير؛ وقد قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ولم يقل: أكثر عملًا؛ لأن الإحسان أعلى مراتب الدين، وقد بقي ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثمانين سنين يحفظ ويتعلم سورة البقرة^(٢)، ولأن التاني مظنة الخشوع والتدبر والبكاء، وفي الحديث: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٣)، وقد أمر بالبكاء والتباكى عند قراءة القرآن، ومحله التاني مع السكينة والخشوع.

ج- مهارة القراءة وحسنها: فللماهر بالقرآن أجر عظيم؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ...»^(٤)، ويدخل في المهارة بالقرآن: حسن تلاوته وحفظه، وأما مَنْ يجاهد نفسه على القرآن وهو عليه شاق؛ فله أجران: أجرٌ لقراءته، وأجرٌ لمجاهدته؛ ففي الرواية الأخرى لهذا الحديث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِثْلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ؛ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَمِثْلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ»^(٥).

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١١) بلاغا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٧٩٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

د- التدبر الذي ينتفع به القارئ: فالقرآن إنما أنزل لتدبره والعمل به؛ قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لَّيَذَّبَرُوا عَيْنَيْهِ وَلِيَذَّكَّرُوا وَلِأَلْبَسُوا﴾ [ص: ٢٩]، وقد نعى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الَّذِينَ لَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

هـ- كثرة النوايا التي يستصحبها قارئ القرآن؛ ومنها:

- طلب الهداية من القرآن؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

- زيادة الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

- مناجاة الله تعالى، فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «اعتكف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف الستر، وقال: أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ- أو قال: فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وعن عبد الله بن المبارك قال: «سألت سفيان الثوري قلت: الرجل إذا قام إلى الصلاة، أي شيء ينوي بقراءته وصلاته؟ قال: ينوي أنه يناجي ربه»^(٢).

- تحصيل شفاعته القرآن يوم القيامة؛ فإن القرآن يأتي يوم القيامة يحاج ويشفع، ويدفع الشر عن صاحبه، فعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «افْرءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، افْرءُوا الزُّهْرَاوِينَ: الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ،

(١) أخرجه أحمد (١١٨٩٦)، وأبو داود (١٣٣٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١٥٩).

أَوْ كَانَهُمَا غَيَاتَانِ، أَوْ كَانَهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا،
اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ. قَالَ
معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة»^(١).

- حصول الرحمة والشفاء؛ قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

- تحصيل الأجر العظيم، فقد ورد في تلاوة القرآن أعظم الفضل والأجر
والثواب، فللقارئ بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، بل قال رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ
مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ نُحِبُّ
ذَلِكَ، قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ - أَوْ يَقْرَأُ - آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ،
وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»^(٢).

- طلب العلم والحق؛ فالقرآن هو الحق، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾
[الأنعام: ٦٦]، وقد أنزله الله تعالى بالحق، فقال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾
[الإسراء: ١٠٥]، وقد شهد الله تعالى وملائكته وأهل العلم من الناس بأن القرآن هو
الحق، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ، بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ
يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال ﷺ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦٦]،
فقارئ القرآن طالب لما فيه من العلم والحق والأحكام.

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٣) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- الاتباع والامتثال في كل شأن، فينوي بتلاوته أنه يقرأ القرآن ويتعلم ما فيه؛ ليتمكن من اتباعه في كل شأنه، كما أمره الله تعالى، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]، والعبد مأمور باتباع الكتاب كله، والإيمان به كله، فالقرآن شامل لكل مجالات الحياة وشؤونها؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ثالثاً: الصوم وسيلة للتقوى وتعظيم المراقبة:

لما علم المؤمن الصائم أن رضا مولاه في ترك شهواته؛ قدم رضا مولاه على هواه، فصارت لذته في ترك شهواته لله - لإيمانه باطلاع الله وثوابه - أعظم من لذته في تناولها في الخلوة؛ إثارة لرضا ربه على هوى نفسه، بل المؤمن يكره ذلك في خلوته أشد من كراهته لألم الضرب.

ولهذا فكثير من المؤمنين لو ضُرب على أن يفطر في شهر رمضان لغير عذر لم يفعل؛ لعلمه بكراهة الله لفطره في هذا الشهر، وهذا من علامات الإيمان؛ أن يكره المؤمن ما يلائمه من شهواته إذا علم أن الله يكرهها، فتصير لذته فيما يرضي مولاه، وإن كان مخالفاً لهواه، ويكون ألمه فيما يكره مولاه وإن كان موافقاً لهواه.

وإذا كان هذا فيما حُرِّم لعارض الصوم من الطعام والشراب ومباشرة النساء؛ فينبغي أن يتأكد ذلك فيما حُرِّم على الإطلاق؛ كالزنا وشرب الخمر وأخذ الأموال، أو التعدي على الأعراض بغير حق، وسفك الدماء المحرمة؛ فإن هذا يسخطه الله على كل حال، وفي كل زمان ومكان.

فإذا كمل إيمان المؤمن؛ كره ذلك كله أعظم من كراهته للقتل والضرب.

ولهذا جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علامات وجود حلاوة الإيمان: أن يكره أن



يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله، كما يكره أن يُلقَى في النار^(١)!

وأخيراً فإن الصوم سبيل قاصد لكسر أقفال الغفلة عن الله، وهو سبب لانشراح الصدور للنور، وتجاوز عقبات الدنيا، والخلق، والشيطان، والنفس الأمارة بالسوء؛ فاللهم أرزقنا حقيقة التقوى واجعلنا أحق بها وأهلها، وارزقنا التيقظ، ودوام التحفظ، ورقة القلوب، وصدق السعي إلى مرضاة علام الغيوب.
برحمتك يا أرحم الراحمين.



(١) لطائف المعارف، لابن رجب (ص ١٥٣).

الموعظة السابعة

في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]

الحمد لله الحكيم الخبير، يؤتي الحكمة من يشاء، وصلى الله وسلم وبارك على
نبي الرحمة، الداعي إلى الله بالحكمة، والسراج المنير، وعلى آله وأصحابه معادن
التقوى والحكمة، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فللحكمة معانٍ لغوية كثيرةٌ تدور على المنع، كما دارت مادة العقل حول المنع
والحبس؛ وذلك لأنها تمنع صاحبها من الوقوع فيما هو سبب للذم.

فالحكمة: ما أحاط بحنكي الفرس، سُميت بذلك؛ لأنها تمنعه من الجري
الشديد، وتُدلل الدابة لراكبها، حتى تمنعها من الجماح، ومنه اشتقاق الحكمة؛ لأنها
تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل.

وأحكم الأمر، أي: اتقنه فاستحكم، ومنعه عن الفساد، أو منعه من الخروج
عمّا يريد.

قال أبو إسماعيل الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْحِكْمَةُ اسمٌ لِأَحْكَامٍ وَضَعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ»^(١).
وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْحِكْمَةُ: فَعْلٌ مَا يَنْبَغِي، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي»^(٢).

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْحِكْمَةُ عبارة عن: العلم المتَّصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النَّفس، وتحقيق الحق، والعمل به، والصدِّ عن اتِّباع الهوى والباطل، والحَكِيم من له ذلك»^(٣).
والحكمة واردة في القرآن في مواضع متعددة بلغت عشرين مرة، في تسع عشرة آية، واثنى عشرة سورة، وقد ذهب المفسرون إلى تفسير معناها في كل موضع بحسب السياق الذي وردت فيه.

والذي يظهر أن معناها في القرآن يعود إلى أمرين:

- النبوة والرسالة؛ قال تعالى: ﴿وَأَتَاكَ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

- العلم والفهم والحجة والصواب؛ فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد وردت الحكمة في السنة كثيراً، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -
وقد ضمه إلى صدره الشريف -: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ»^(٤).

وفي حديث شق صدره الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ

(١) منازل السائرين (ص ٧٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٩).

(٣) شرح صحيح مسلم (٢/ ٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ»^(١)، وفي حديث أهل اليمن: «أَتَاكُمْ أَهْلُ
الْيَمَنِ هُمْ أَرْقُ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، وَالْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ»^(٢).

وعليه؛ فإن الحكمة تدور على: وضع كل شيء في موضعه اللائق به.

قال مجاهد: «الحكمة: معرفة الحق والعمل به»^(٣).

وقال مالك: «الحكمة: الإصابة في القول والعمل»^(٤).

وروى ابن وهب عن مالك أنه قال- في معنى الحكمة-: «إنها المعرفة بالدين،
والفقه في التأويل، والفهم الذي هو سجية، ونور من الله تعالى»^(٥).

والحكمة: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه
الأقسام الثلاثة؛ لأن العبد إما أن يكون عالمًا بالحق، وإما جاهلاً به، والعالم بالحق
إما أن يكون عاملاً بموجبه، أو مخالفًا له، فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها
البتة، فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه، وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع،
والعمل الصالح، وهو المفلح، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] والعالم به المتبع هواه
هو المغضوب عليه، والجاهل بالحق هو الضال، والمغضوب عليه ضال عن هداية
العمل، والضال مغضوب عليه؛ لضلّاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال
مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مدارج السالكين (٤٤٨/٣).

(٤) المصدر السابق (٤٤٨/٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١/١٣١).

ومن هنا كان اليهود أحق به، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعالى - في حقهم -: ﴿يُسْكِمَا أَسْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، والجاهل بالحق أحق باسم الضلال، ومن هنا وُصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَا هَلْ أَلِكْتَبِ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فالأولى في سياق الخطاب مع اليهود، والثانية في سياقه مع النصارى، وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضُلَالٌ)^(١)، ففي ذكر المُنْعَم عليهم وهم مَنْ عرف الحق واتبعه، و﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم مَنْ عرفه واتبع هواه، و﴿الضَّالِّينَ﴾ وهم مَنْ جهلَه - ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة؛ لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة^(٢).

وللحكمة في كل زمان ومكان وحال أهمية بالغة؛ لما يلي:

١ - الحكمة مأمور بها، ومدعو إليها وبها:

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٤)، وابن حبان (٦٢٤٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤ - ٣٥).

٢- الحكمة ضالة المؤمن متى وجدها فهو أحق بها في كل أمر:

وقد روي في الحديث: «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»^(١).

وهذا الحديث وإن لم يثبت مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن معناه صحيح؛ وذلك أن المؤمن لا يزال طالباً للحق حريصاً عليه، ولا يمنعه من الأخذ به حيث لاح وجهه شيء، فكل من قال بالصواب، أو تكلم بالحق قُبِلَ قوله وإن كان بعيداً بغيضاً، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٓأَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

فليس بغض المؤمن شخصاً ما بحامله على رد ما جاء به من الحكمة والخير، بل هو يأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت، وعلى أي لسان ظهرت على حد قول القائل:

لَا تَحْقِرَنَّ الرَّأْيَ وَهُوَ مُوَافِقٌ حُكْمَ الصَّوَابِ إِذَا أَتَى مِنْ نَاقِصٍ
فَالدُّرُّ وَهُوَ أَعَزُّ شَيْءٍ يُقْتَنَى مَا حَطَّ قِيَمَتُهُ هَوَانُ الْغَائِصِ

٣- والحكمة مصطلح مظلوم متنازع عليه بين الحمقى والحكماء؛ وذلك لتطرق الفهم الخاطيء له، وضياح الحق وتضييع أهله.

٤- ما يصطرع في الواقع اليوم من نزعات ومجالات قد تغيب فيها الحكمة، وتجبر على الأمة ويلات كثيرة.

٥- ما تمس إليه حاجة العلماء والدعاة والمصلحين من تلمس الحكمة في مظانها وإعمالها في مجالها.

(١) أخرجه الترمذي (٤١٦٩)، وابن ماجه (٤١٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويعارض الحكمة ويمانعها أمور متعددة، منها:

١- الهوى والغرض:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في الأمر، ولا يطلبه أصلاً، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه هواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، فليس قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه وطائفته، أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه، أو لغرض من الدنيا، فلم يكن لله غضبه، ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، بل إن أصحاب الهوى يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيئ القصد ليس له علم ولا حسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمداوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير مولاتهم ومعادتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله»^(١).

وَأَفَةُ الْعَقْلِ الْهَوَىٰ فَمَنْ عَلَا عَلَىٰ هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

٢- الجهل وعدم الفهم:

الجهل البسيط سبب للضلال، وأشد منه: الفهم الأعوج والمسلك الأهوج في التعامل مع النصوص.

(١) منهاج السنة النبوية (٥/٢٥٦).

فعدم فهم القرآن ودلالات آياته، والسنة وإشارات أحاديثها - سبب لمناقضة الحكمة. ويلتحق بذلك: سطحية التعامل مع النص الشرعي، ومثله: عدم الجمع بين الأدلة، والعمل على أعمال بعضها وإهمال البعض الآخر.

والاستدلال بالأدلة في غير ما سيقته له، كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، في ترك الجهاد! ومثل ذلك الخلط في مفاهيم كمفهوم خوف الفتنة بين القيام بالواجب والقعود عنه، والعمل الجماعي بين الحزبية والعصبية وبين الوسائل والغايات.

٣- اختلال ميزان قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد:

فمن الأهمية في الواقع: معرفة خير الخيرين جلباً، وشر الشرين دفعاً، وإدراك التفاوت بين رتب المصالح والعمل على تكثيرها بتقليل المفاسد. واختلال ميزان هذه القاعدة يفضي إلى ارتكاب مكفراتٍ ومفسقاتٍ بوجه المصلحة، وتفويت واجباتٍ ومهماتٍ بوجه المفسدة.

٤- الغفلة عن فهم الواقع والوعي به وعياً تفصيلياً:

وقد قال تعالى: ﴿وَلْتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

فإن هذا الزمان يشهد من المكاييد والمؤامرات مع تغير القلوب وفساد الأديان والتكالب العالمي على الإسلام وأهله ما الله به عليم!

وكم من مرة استعمل أهل الحق لنصرة الباطل لغفلتهم، واستخدموا في حرب بعضهم بعضاً لقلة بصيرتهم!

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

٥- العنف والغلظة والطيش وسرعة الغضب:

قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

[آل عمران: ١٥٩].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لأشج عبد القيس -: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ»^(١) وأوصى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً، فقال: «لَا تَغْضَبْ»^(٢).

أسباب تحصيل الحكمة:

الحكمة هبة وفضل من الله ﷻ يهبها لمن يشاء من عباده وأوليائه، والحكمة ليست كسبية تحصل بمجرد كسب العبد دون تعليم الأنبياء له طرق تحصيلها، فالعبد لا يكون حكيماً إلا إذا سلك طرق تحصيل الحكمة، ولا يمكن أن يحصل على الحكمة إلا إذا كانت طرقها مستقاة من الكتاب والسنة.

والحكمة لها طرق تكتسب بها بتوفيق الله تعالى، ومن أهم هذه الطرق التي إذا سلكها المسلم صار حكيماً بإذن الله تعالى: العلم النافع، والحلم، والأناة، والرفق واللين، والإخلاص والتقوى، والصبر والمصابرة، والسلوك الحكيم، والعمل بالعلم، والاستقامة، والخبرات والتجارب، وجهاد النفس والشيطان، وعلو الهمة، والعدل، والدعاء، والاستخارة والاستشارة، وهذه بعض إضاءات على بعض تلك الأسباب:

(١) أخرجه مسلم (١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١- تقوى الله والإخلاص:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وأهل التقوى والإخلاص يؤتون التوفيق والإعانة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

٢- العلم الشرعي:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١).

والحكمة هي العلم النافع الهادي إلى سواء السبيل.

٣- الخبرة والتجربة ورجاحة العقل:

في الحديث: «لَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو تَجَرِبَةٍ»^(٢)، ومن وُفِّقَ للتجربة والخبرة النافعة فإنه يهدي لغيره ثمرة عمره، وخلاصة فكره، وهذا يحتاج إلى السن غالباً، واكتمال العقل فيه، ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَؤُلَآءِ الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وسن الأربعين هي سن اكتمال النضج، وهي سن النبوة والتكليف بالرسالة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٥٦)، والترمذي (٢٠٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- الاستشارة:

قال تعالى - لنبیه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، والكامل من الرجال من له عقل ويستشير.

وقد شاور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه، قال ابن إسحاق: «فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، أمتزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نعور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقد أشرت بالرأي، فانهض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغُورَتْ، وبنى حوضاً على القلب الذي نزل عليه، فملى ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية»^(١).

وهكذا يصح أن يقال:

رَأْيُ الْجَمَاعَةِ لَا تَشْقَى الْبِلَادُ بِهِ رَغَمَ الْخِلَافِ وَرَأْيُ الْفَرْدِ يُشْقِيهَا

٥- الدعاء والاستخارة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١).



قال ابن عاشور: «الرشد: إصابة الحق وفعله»^(١).

والدعاء المُلحُّ من المضطر موطن إجابة بلا شك!!

والاستخارة: طلب الخير من العليم الخبير.

فمن سلك هذا السبيل فقد أَمِنَ من اشتباه السبل عليه!

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَأَقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَأَقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ ارْضِنِي بِهِ. وَيُسَمَّى حَاجَتَهُ»^(٢).

والحكمة مسلك دقيق:

بين الرفق واللين، وبين الضعف.

بين القوة والحزم، وبين العنف.

بين المداراة المأمور بها، وبين المداهنة المذموم أهلها.

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٨٢).

بين الجهر بالحق الممدوح صاحبه، وبين السكوت الواجب منعاً للمفسدة.

بين خوف الفتنة، وبين الجبن والخوف!

فاللهم آتِ عقولنا الحكمة، وقلوبنا التقوى والرحمة، وعلمنا من لدنك علماً،
وارزقنا فهماً، واجعلنا من أهل البصيرة النافذة، والعافية الدائمة في الدين والدنيا
والآخرة.



الموعظة الثامنة

في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، خير من علم لا إله إلا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ند له، ولا كفؤ له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليفه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ - ١٣٣]، هذه الآيات دالة على أن شفقة الأنبياء على أولادهم وأهلهم كانت في باب الدين، وأن هممتهم واهتمامهم كانا مصروفين إلى الوصية بـ«لا إله إلا الله»، «لما حضرت نوحاً عليه السَّلامُ الوفاة

قال لابیّنه: إني قاصر عليكما الوصية، آمركما باثنتين، وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك، والكبر، وأمركما بلا إله إلا الله؛ فإن السماوات والأرض وما فيهما لو وُضعت في كفة الميزان ووُضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح، ولو أن السماوات والأرض كانتا حلقة فوُضعت لا إله إلا الله عليهما لفصمتهما -أو لفصمتهما- وأمركما بسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزق كل شيء^(١).

لقد علم الله ﷻ أنبيائه «لا إله إلا الله»، وأمرهم ببلاغها فقال جل من قائل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فدين أنبياء الله ومرسليه «لا إله إلا الله».

وقد قال الله ﷻ وأمر النبي ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: أن إرسال الرسل ليس بجديد على البشر، ودعوة الرسل قديمة لا يطرأ عليها تغيير ولا يحصل فيها تبديل، كما قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فدعوة الرسل أجمعين: لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله.

ولذا وقف رسول الله ﷺ على الصفا ينادي في قومه بالتوحيد، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لما أنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه، ثم نادى: يَا صَبَاحَا! فاجتمع الناس إليه، بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي

(١) أخرجه أحمد (٧١٠١)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَهَرِ، يَا بَنِي، يَا بَنِي، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بَسَفَحَ هَذَا الْجَبَلَ، تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، صَدَقْتُمُونِي؟ قالوا: نعم، قال: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فقال أبو لهب: تَبًّا لَكَ سائر اليوم! أما دعوتنا إلا لهذا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] ﴿١﴾.

فضائل «لا إله إلا الله»:

«لا إله إلا الله» هي الغاية من خلق الجن والإنس: فتحقيق توحيد الله هو الأساس لوجود الكون، والمقصود من خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقد لخص القرآن الكريم أوامر الدين كله في أمر واحد وهو التوحيد: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

«لا إله إلا الله» هي الغاية من بعثة الرسل: فما بُعث النبي ﷺ ومن قبله من الأنبياء إلا ليعبد الله وحده لا شريك له، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وما قامت الخصومة بين الأنبياء وأممهم إلا لأجل التوحيد، ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤]، وفي سبيل التوحيد جرد الأنبياء سيوف الجهاد، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، ففي الحديث: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيَّ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ؛ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٥١١٥) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هي الغاية من إنزال الكتب: فما أنزل الله القرآن الكريم، وما قبله من الكتب السماوية إلا دعوة إلى التوحيد، يقول تعالى: ﴿يُزِلُّ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وكتاب الله بأسره داعٍ إلى توحيد الله من فاتحته إلى خاتمته، قال ابن القيم رحمه الله: «كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه»^(١).

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هي أول الدين وآخره: فأول ما يخاطب به الناس من أمور الدين هو «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وفي حديث معاذ رضي الله عنه حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»^(٢)، وما خاطب نبي من أنبياء الله قومه إلا قال لهم - أول ما قال - : ﴿يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وإذا كانت «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هي أول ما يدخل به المسلم إلى الدين، فكذلك «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هي آخر ما يخرج به من الدنيا، ففي الحديث: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٣)، فاللهم اجعل آخر كلامنا من هذه الحياة، وآخر ما نختم به صحفنا قبل الممات «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣ / ٤١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

«لا إله إلا الله» حق الله على عباده: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ: الله ورسوله أعلم، قال: أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ، قَالَ: أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ فَقَالَ: الله ورسوله أعلم، قال: أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»^(١).

«لا إله إلا الله» شرط قبول الطاعات: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، وفي المقابل قال تعالى - في حق من أبى «لا إله إلا الله» - : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، بل حذر الله ﷻ أنبياءه ورسوله الكرام فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقد صور سبحانه حسرة من ضيَّع «لا إله إلا الله» يوم القيامة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْنَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

«لا إله إلا الله» هي العصمة في الدنيا والنجاة في الآخرة: فالتوحيد هو الذي تعصم به الدماء والأموال، قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مَنِي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»^(٢)، وقد لام النبي ﷺ حَبَّه وابن حَبَّه أسامة بن زيد رضي الله عنهما لما قتل رجلاً من المشركين قال: لا إله إلا الله، بعد أن علاه أسامة بالسيف، فقال لأسامة: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«لا إله إلا الله» هي سبب النجاة في الآخرة: تأمل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وتأمل قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمَوْجِبَتَانِ؟ فَقَالَ: مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»^(١).

ما أعظم فضل الله تبارك وتعالى حين يمنحنا هذا الفضل وينبهننا إلى هذا الخير!

«لا إله إلا الله» هي سبب شفاعته سيد الخلق ﷺ: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ - أَوْ نَفْسِهِ»^(٢)، أي: قالها وعمل بها.

«لا إله إلا الله» هي أفضل ما ذكر الله به: فأفضل الذكر «لا إله إلا الله»، لقول النبي ﷺ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٣).

وقد أخبرنا النبي ﷺ بعظم ما كتبه الله من ثواب لمن ذكر الله بالتوحيد، فقال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عِدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ

(١) أخرجه مسلم (٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

(٣) أخرجه أحمد (٦٩٦١)، والترمذي (٣٥٨٥)، وقال: حديث غريب.

سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

«لا إله إلا الله» مفزع المؤمنين عند كل كرب وهم وغم: فالتوحيد مفزع أولياء الله وأعدائه؛ فإن أعداءه إذا مسَّهُمُ الضرُّ في البرِّ والبحرِ فزِعُوا إلى توحيده، ودعوا الله مُخْلِصِينَ له الدين، فنجاهم مما ابتلاهم به.

وأما أوليائه فهي مفزعهم في شدائد الدنيا والآخرة، ولهذا كانت دعوات المَكْرُوبِ توسل إلى الله بالتوحيد، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(٢)، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ كَرْبَهُ، دعاء بالتوحيد كذلك: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

حرص الأنبياء وأتباعهم على الدعوة إلى «لا إله إلا الله»:

كان حرص الأنبياء واهتمامهم ومنتهى بذلهم واجتهادهم هو في الدعوة إلى «لا إله إلا الله»، والنبي المصطفى والرسول المجتبي ﷺ كان أحرص الخلق على الهداية إلى دين الحق سبحانه؛ وقد كان هذا دأبه ﷺ في كل أحواله وأحيانه، لا يكلُّ من دعوة إلى هدى، ولا يمل من تعريف المسلمين وتوقييتهم سبل الردى، كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمَرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ»، ويقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، ويقرن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٣٦٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

بين إصبعيه السبابة، والوسطى^(١)، وأخرى يقول: «وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ»^(٢)، وثالثة يقول: «أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ»، قال الراوي: حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه، قال: حتى وقعت خميصه كانت على عاتقه عند رجله^(٣).

بل بلغ من حرص نبينا ﷺ على هداية الخلق أنه إذا عرض أحد عن دعوته شق ذلك على قلب الرؤوف الرحيم ﷺ، حتى كاد يهلك نفسه حزناً على الهالكين من أمته، حتى خاطبه ربه بقوله: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَاثِرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وسأله ربه تعالى، وخفف عنه فقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

إنه الحرص على الدين، إنه تعلق قلوب الأنبياء بالإسلام ونصرته وهداية الخلق إليه، إنه ذلك الحرص الذي لامس شغاف القلوب، وتخلل بين اللحم والعظم، ذلك الحرص الذي شغل نبينا ﷺ عن وجعه ومرضه، حتى إنه صلوات الله وسلامه عليه لما غلبه وجعه الذي مات منه، جعل يطرح على وجهه الشريف خميصه سوداء، يكشفها ويقول: «قَاتَلَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٤)

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٣٩٨)، والبخاري (٣٢٢٤-زوائد) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٣٥٠)، والطبراني في الأوسط (١١١٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يَحْرُمُ ذَلِكَ عَلَى أُمَّتِهِ، وَلَمَّا نَزَلَ الْمَوْتُ بِسَاحَتِهِ ﷺ جَعَلَ يُوصِي النَّاسَ فَيَقُولُ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، حَتَّى جَعَلَ ﷺ يُلْجِلُجُهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ^(١)، مَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى مَا يَسْتَطِيعُهَا لِسَانُهُ، فَصَدَّقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ حِينَ وَصَفَهُ فَقَالَ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعلى هذا المنهج والسبيل من الحرص على هداية الناس كان أتباع الأنبياء وأصحابهم، فعن قتادة - في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: ٢٠]، قال: بلغني أنه كان يعبد الله في غار واسمه حبيب سمع بهؤلاء النفر جاءهم فقال: أتسألون أجراً؟ قالوا: لا، فقال لقومه: ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ٢٠ ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ٢١ ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٢٢ ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ ٢٣ ﴿إِنِّي إِذًا لِّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٢٤ ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٥]، قال: فرجموه بالحجارة، فجعل يقول: ربِّ اهد قومي، أحسبه قال: فإنهم لا يعلمون، قال: فلم يزالوا يرمونه حتى قتلوه، فدخل الجنة، فقال: ﴿قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ٢٦ ﴿بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧]، قال: فما نواظروا بعد قتلهم إياه حتى أخذتهم صيحة واحدة، ﴿فَإِذَا هُمْ خَعِيدُونَ﴾ [يس: ٢٩] ٢٧.

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٨٤) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢٤٧١).

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يعتنون بدين الله وبنصرته، ولا يتركون الدعوة إليه، ولا يدعون إقامته، فلا يبدؤون أحدًا بقتال قبل دعوته، قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم»^(١)، أي: ادعوهم إلى الإسلام؛ فإنَّ هَمَّ المسلمين أن يدخل الناس في دين الله، ليس همهم أن يجبوا الأموال ولا أن ينالوا من الناس الغنائم، ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم.

وقال عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لعتبة لما ولّاه على البصرة - : «يا عتبة، إني استعملتك على أرض الهند وهي حومة من حومة العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها، وأن يعينك عليها، وادع إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية عن صغار وذلة، وإلا فالسيف في غير هواذة، واتق الله فيما وليت»^(٢)، وأرض البصرة كانت تسمى يومئذ بأرض الهند.

وكما كانت هذه طريق القادة كانت طريقة الأجناد، «جاء رسول الروميين إلى أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فدعاه إلى الإسلام فأسلم، وفرح المسلمون لذلك فرحًا عظيمًا وقالوا له: ما أعزك علينا وأرغبنا فيك وأكرمك علينا، وما أنت الآن عند كل امرئ منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه، قال الرومي: فإنكم نعم ما رأيتم»^(٣)، تأمل كيف كانت عاطفتهم نحو من أسلم من غير دينهم ومن غير أهلهم ومن غير

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/ ٧٦).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٧/ ٥٧).

(٣) الاكتفاء بما تضمنه مغازي رسول الله، لسليمان بن موسى الكلاعي (٢/ ٢٧٢).

لغتهم؟! ما أعزك علينا وأرغبنا فيك وأكرمك علينا، وما أنت عند كل امرئ منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه، عندها نطق الرومي فقال: فإنكم نعم ما رأيتم.

«ولما وقع الأسرى من المصريين بيد عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبدى المقوقس صاحب الإسكندرية استعداده لأداء الجزية للمسلمين على أن يرد عليه سبايا أرضه، وافق عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن استأذن الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأذن على أن يخير الأسرى الذين وجدوا بمصر بين الإسلام ودين قومهم، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية، قال الراوي: «فجعلنا نأتي بالرجل بمن في أيدينا ثم نخيره بين الإسلام والنصرانية، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية، ثم نحوزه إلينا»، تأمل فرحهم بدخول واحد من غير المسلمين في دين الله، كيف كانت عاطفتهم؟ يقولون: كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية؛ لأنهم ما يفتحون القرية إلا للإسلام وبالإسلام ومن أجل الإسلام، وقولهم: «ثم نحوزه إلينا»، يعني: نضمه إلينا.

قال الراوي: «وإذا اختار النصرانية، نخرت النصارى، ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً حتى كأنه رجل خرج منا إليهم»^(١)، يعني: أن بقاء ذلك الرجل على دينه كان بالنسبة لهم حزناً وكمدًا في نفوسهم، كما لو أن مسلماً خرج من دينه إلى دين النصارى! الله أكبر، الله أكبر، ما

(١) تاريخ الطبري (٢/٥١٣).

أعظم فرحهم بالإسلام، وما أشد تأسفهم على الإعراض عنه!!

فما بال كثير من بني قومنا لا يعبأون بالإسلام أصلاً، ولا يهتمون به رأساً، لا يفرحون لإيمان مؤمن، ولا يحزنون لفتنة مسلم، ولا يتغيرون أو يتغايرون حين تُستلب منهم امرأة مسلمة أو تُفتن في دينها في مشارق الأرض ومغاربها؟! إِنَّ أُمَّرَأَةً ظَلَمْتَ أو أَهَيْنْتَ فقامت لأجل ذلك حروب لا هوادة فيها!

وفي تاريخنا كشف يهودي الثوب عن عورة صحابية مسلمة فكان في ذلك حتفه، وكان في ذلك إجلاء بني قينقاع بأكملهم من مدينة النبي ﷺ^(١)، واستنجدت مسلمة وقالت: وامعتصماه، فسار إليها بجيش عرمرم من ليلة وصلته كلمة المسلمة المكروبة، وصرخة الحرة المأسورة^(٢)، وأذى حاكم قلعة الكرك الحاجات المسلمات في أعراضهن، فأقسم صلاح الدين ليقتلنه بيده، وقد أبرَّ الله قسمه ومكنه من عدوه، هكذا تكون النخوة والشهامة^(٣).

أما اليوم، فكما قال الشاعر^(٤):

رُبَّ وَامُعْتَصِمَاهُ انْطَلَقَتْ مِلَى أَفْوَاهِ الصَّبَايَا يَتَم
لَامَسَتْ أَسْمَاعَهُمْ لَكِنَّهَا لَمْ تَلَامِسْ نَخْوَةَ الْمُعْتَصِمِ

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٥ / ٤) .

(٢) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي (٢٢١ / ١) .

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢٠ / ٤١) .

(٤) من قصيدة «أمتي» لعمر أبي ريشة .



اللهم ارحمنا برحمتك، وأعنا على القيام بحق دينك، واجعلنا من أهله الذين هم أهلك وخاصتك، اللهم انصر الإسلام وأهله، وأذل الكفر والشرك وأهله، اللهم اجعلنا من أهل لا إله إلا الله الذين عليها يحيون، وعليها يموتون، وعليها يبعثون، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الموعظة التاسعة

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده، وبعد:

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

«أي: للطريقة التي هي أقوم؛ لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم، ففيه إيماءٌ إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلکًا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه.

وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة.

وهذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفاراً^(١).

قال قتادة: «إن القرآن يدلکم على دلائکم ودوائکم، فأما دوائکم فالذنوب والخطايا، وأما دوائکم فالاستغفار»^(٢).

فهذه الآية معجزة في إطلاقها، فهي تتجاوز في هدايتها حدود الزمان والمكان، وتشمل جميع بني الإنسان.

إنها قاعدة تقيم العقيدة على أصول الهداية، وهي منصة تنطلق منها العبادة على أصول الاتباع، وهي برهان صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان.

والقرآن كما هو كتاب عظة فهو كتاب حكم وأحكام، وكما هو كتاب رفاق وتذكير فهو كتاب تشريع وتأصيل، وكما يعالج قضايا النفس وما يجري بداخلها يعالج قضايا السياسة وما يحصل في دهاليزها.

وكما ينبه إلى تصحيح العبادات والمعاملات، ينبه - أيضاً - على مهمات الأخلاق والسلوك، وما يصلح الدنيا من السياسات والممارسات.

والذين ظنوا قصور وظيفة القرآن عليهم أن يراجعوا عقيدتهم في كتاب ربهم؛ فإن هداية القرآن عامة، وشاملة لكل مصالح الإنسان في العاجلة والآجلة.

وتتبع هدايات القرآن في إصلاح الإنسان وتصحيح مسيرته لا ينقضي منها العجب! فإذا كان القرآن الكريم هو آخر كتب الله نزولاً فهو أعظمها اشتمالاً على الهدى، وأكملها في تجنيب البشر سبل الردى.

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (١٥/٣٩ - ٤٠).

(٢) الدر المنثور، للسيوطي (٥/٢٤٥).

وقد تضمن القرآن جميع أنواع الهدايا، وهي: «هداية الفطرة والغريزة، وهداية الحواس، وهداية العقل، وهداية التفكير والاستدلال بكل ذلك، وهداية الدين، وهو للنوع البشري في جملته كالعقل لأفراده، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق، وتسهيل سبيله، ومنع الصوارف عنه»^(١).

وقد ضلّ أقوام في الانتفاع والاتباع لهداية القرآن فرعموا فيه أبطل الزعم فحرموا هدايته، وحيل بينهم وبين رياض جنته، وعظيم نفعه، ولذلك أسباب ينبغي الانتفاء عنها والاجتناب لها.

وها نحن نعدد طرفاً منها لِنُحَذِرَ:

١- الكبر:

الكبر داء دوي يمنع الفهم عن الله وعن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والكبر لا يتأتى لصاحبه انتفاع بالقرآن.

قال تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْبَرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال ابن عيينة: «سأمنعهم من فهم القرآن»^(٢).

٢- مرض القلب:

بحب الشهوات، والإصرار على المعاصي والسيئات، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١١/٢٩٦).

(٢) تفسير البغوي (٢/١٥٢).

قال ابن قدامة: «وليتخلى التالي عن موانع الفهم... ومن ذلك: أن يكون التالي مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع؛ فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فهو كالجرب على المرأة، يمنع من تجلي الحق، فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصدا، ومعاني القرآن مثل الصور تتراءى في المرأة، والرياضة للقلب بإمالة الشهوات مثل الجلاء للمرأة»^(١).

وفي الافتتان بالشبهات يقول الزركشي: «واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب! أو في قلبه كبر، أو هوى، أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمداً على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعاً إلى معقوله، وهذه كلها حُجُب وموانع، وبعضها أكد من بعض»^(٢).

والاهتداء بهدي القرآن له شروط:

نص الله تعالى على هذه الشروط في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وأولها: القلب الحي ﴿يُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، أي: حي القلب. فميت القلب أعمى.

وثانيها: الاستماع والإنصات ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

فمثل غير المنصت كالبصير الذي ينظر إلى جهة أخرى.

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص ٥٣ - ٥٤).

(٢) البرهان، للزركشي (٢/ ١٨١).

وثالثها: شهود القلب وحضوره، وبراءته من الغفلة والسهو والغيبة عن فهم مراد الله في كتابه، وهذا هو البصير الذي حدق النظر وصوبه إلى جهة المنظور.

٣- اتباع الأهواء:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۚ﴾ (٤٣) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۚ﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات؛ فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ﴾ [القصر: ٥٠]؛ ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يُجعل من أهل الأهواء؛ وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله»^(١).

وإذا كان متبع الهوى يعتقد، ثم يبحث في القرآن عما يوافقه ويكون حجة لهواه فحسب، فمتى ينتفع بالقرآن؟!

وإذا غلب الهوى على القلب وصار متألهًا فإنه لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا. قال عون بن عبد الله: «إذا غلب الهوى على القلب استحسّن الرجل ما كان يستقبحه»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/١٣٢ - ١٣٣).

(٢) أخرجه ابن بطّة في الإبانة الصغرى (٨٤).

ويقول شيخ الإسلام: «وصاحب الهوى لا منهج عنده بإزاء القرآن، إلا إذا وافق القرآن هواه احتج به اعتضاداً، لا اعتماداً، وإن خالفه فتارة يحرف الكلم عن مواضعه، ويتأوله على غير تأويله، وتارة يعرض عنه، ويقول: نفوض معناه إلى الله! والأول فعل أئمة أهل الأهواء، والثاني فعل عامتهم»^(١).

٤- الافتتان بالحياة الدنيا وزينتها:

قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرْدُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي الحديث: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؛ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

فحال هذا المتلهف على الدنيا قد انقطع قلبه كحال الكلب اللاهث قد انقطع قلبه، فكما أن الكلب لا يترك اللهاث بكل حال، فكذا الثاني لا يترك التلهف على الدنيا بكل حال!

(١) مجموع الفتاوى (١٣/١٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعالم السوء يلهث ويتلهف على الدنيا من قلة صبره عنها، والكلب يلهث من قلة صبره عن الماء.

فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، وحرارة الشهوة وحب الدنيا في كبد عالم السوء توجب له دوام اللهف.

فإن حملت على الكلب لهث، وإن تركته لهث، وعالم السوء إن وعظته بالقرآن تلهف على الدنيا، وإن تركته ولم تعظه فهو يتلهف - أيضاً^(١).

قال الغزالي: «إن الذي يؤثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب؛ ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب»^(٢).

ومن أراد الانتفاع بهدي القرآن فلا بد له من مسالك مهمة، منها:

١ - الإيمان بعظمة القرآن.

٢ - اليقين بإحكامه لفظاً ومعنى.

٣ - إظهار الافتقار بالقلب والقالب إلى هداياته.

٤ - تطهير القلب من أقفال الاهتداء.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «إِنْ مَنْ أَصْغَى إِلَى كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعقله، وتدبره بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا منظومه ولا منشوره»^(٣).

(١) أعلام الموقعين، لابن القيم (١/ ١٢٨ - ١٢٩).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٤).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤١).

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرَّوم: ٢٣].

قال الشاعر^(١):

تَدَبَّرَ كِتَابَ اللَّهِ يَنْفَعُكَ وَعَظُهُ	فَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَبْلَغُ وَاعِظُ
وَبِالْعَيْنِ ثُمَّ الْقَلْبِ لَاحِظُهُ وَاعْتَبِرْ	مَعَانِيَهُ فَهُوَ الْهُدَى لِلْمُلاحِظِ
وَأَنْتَ إِذَا أَتَقَنْتَ حِفْظَ حُرُوفِهِ	فَكُنْ بِحُدُودِ اللَّهِ أَفْوَمَ حَافِظِ
وَلَا يَنْفَعُ التَّجْوِيدُ لَافِظَ كَلِمِهِ	وَإِنْ كَانَ بِالْقُرْآنِ أَفْصَحَ لَافِظِ
وَيُعْرِفُ أَهْلُوهُ بِإِحْيَاءِ لَيْلِهِمْ	وَصَوْمِ هَجِيرٍ لَاعِجِ الْحَرِّ قَائِظِ
وَعَضَّهِمُ الْأَبْصَارَ عَنْ كُلِّ مَائِمٍ	يَجُرُّ بِتَكَرِيرِ الْعُيُونِ اللَّوْاحِظِ
وَكَظْمِهِمُ لِلْغَيْظِ عِنْدَ اسْتِعَارِهِ	إِذَا عَزَّ بَيْنَ النَّاسِ كَظْمُ الْمَغَائِظِ
وَأَخْلَاقُهُمْ مَحْمُودَةً إِنْ خَبَرَتْهَا	فَلَيْسَتْ بِأَخْلَاقٍ فِظَاطٍ غَلَائِظِ
تَحَلَّوْا بِآدَابِ الْكِتَابِ وَأَحْسِنُوا التَّ	تَفَكَّرُ فِي أَمْثَالِهِ وَالْمَوَاعِظِ
فَغَاضَتْ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ نُفُوسُهُمْ	سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ النَّفُوسِ الْفَوَائِظِ

قاعدة جليلة في الانتفاع والتأثر بالقرآن:

«إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه؛ فانه خطاب منه لك، على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

(١) وهو جمال الدين الصرصري الحنبلي. الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح (٢/٦٠٣).

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه - تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أشار إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به: القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِّتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾، أي: حي القلب.

وقوله ﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾، أي: وجّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثير بالكلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي: شاهد القلب، حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة: (استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ)، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر - وهو القرآن - والمحل القابل - وهو القلب الحي - ووجد الشرط - وهو الإصغاء - وانتفى المانع - وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر - حصل الأثر، وهو: الانتفاع والتذكر^(١).



الموعظة العاشرة

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءً آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]

الحمد لله اصطفي بعض عباده، وآتاهم الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب، وأمر عباده بأخذ الكتاب بقوة، وأن يستمسكوا بما أوحى إليهم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله، وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ (١٣) ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤]، ووصف الله تعالى شأن الوحي، فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

ولأجل أنه قول فصل ثقیل فلا يصلح أن يؤخذ بضعف، أو بتهاون؛ لذا قال الله تعالى - أمراً نبيّه - : ﴿يَبْحِثْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

وهو خطاب من الله تعالى لنبي من أنبيائه، وولي من أوليائه، ومثل هذا الخطاب وجهه الله تعالى لأمم الأنبياء من بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءً آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣] والسياق وإن

تعلق بنبي إسرائيل إلا أنه صالح لكل من يتأتى له الخطاب من الأمم من بعدهم.

والقوة المرادة في هذه الآية هي: الجِدُّ، كما قاله قتادة^(١).

أو بالعمل بما فيه، كما قاله مجاهد^(٢).

وفي سياق آخر قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ يَدَهُمْ أَكَنَابًا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والم تأمل في لفظة «يُمَسِّكُونَ» يكاد يرى فيها صورة القبض على الكتاب بقوة الجِدِّ، وصرامة العزم، وصدق الاتباع!

إنها نفس الصورة التي تبين من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي قَدْ خَلَفْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا - أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِمَا - كِتَابُ اللَّهِ، وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضُ»^(٣).

وبقوله الآخر: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»^(٤).

فقوله: «فَعَلَيْكُمْ»: اسم فعل أمر بمعنى: الزموا، واتبعوا.

«عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»: النواجذ: الأضراس، بل آخر الأضراس، فهذا كناية عن شدة التمسك بالكتاب والسنة، وأخذهما بقوة، والقبض عليهما بشدة.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٥٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٢/٢).

(٣) أخرجه الحاكم (٣١٩)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٣٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالقوة شعار المؤمن ودثاره، وقد حض على ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، اِحْرَضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفَتَحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»^(١).

وفي معاني أخذ هذا الدين بقوة جوانب متعددة نرجع عليها؛ لعل الله أن ينفع بها:

أولاً: القوة في الاستقامة:

وقد قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥].

قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستقيم على أمر الله»^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [الأحقاف: ١٣].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «استقاموا على أداء فرائض الله»^(٣).

وقال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «استقاموا على طاعة الله»^(٤).

وبالاستقامة أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سفيان بن عبد الله حين جاءه، فقال: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، فقال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»^(٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٢٥/٢٠).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٢٥/٢٠).

(٥) أخرجه مسلم (٣٨) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فحقيقة الاستقامة: المداومة على الطاعة ظاهراً وباطناً في المنشط والمكروه، واليسر والعسر، فهي لزوم تقوى الله أبداً.

ولما كانت الاستقامة أبداً أمراً بعيد المنال على مَنْ كُتِبَ عليه حفظه من المعاصي فهو مدرك ذلك لا محالة - كان من رحمة الله تعالى أن شرع الاستغفار مطلقاً، وعند الزلات والهنوات خاصة، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فُصِّلَتْ: ٦]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَغْفِرُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(١).

فلا بد من تقصير يجبره الاستغفار، ومن سيئة تمحها حسنة، «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٢).

وعليه؛ فإن الاستقامة بحسب الطاقة أمانة أخذ الدين بقوة، قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ثانياً: القوة في تبني قضايا الدين والأمة:

وذلك مقتضى العقد مع الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

فالجنة هي ثمن الأنفس والأموال التي بيعت لله تعالى، والجنة اشتراها المؤمن بنفسه وماله أن يهلكهما في نصرة دين الله، بالدعوة إلى الله، وبالأمور بالمعروف والنهي عن المنكر، وبقتال أعداء الله، وبتكيف نفسه ومشاعره مع دين الله وشرعه أبداً.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٧٨)، وابن ماجه (٢٧٧) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤)، والترمذي (٩٨٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلا يفرح مؤمن بمثل ما فيه عزُّ الإسلام وأهله، ولا يحزن بمثل أمرٍ فيه النيل من الإسلام وأهله!

فالمسلم ذو قلب يخفق بحب دين الله ﷻ، كل شيء من حوله يذكره بقضية الإسلام الذي لا غنى له عنه ولا بديل له منه.

إذا تغير حاله ذكره بالإسلام، وإذا وقع شيءٌ عجبٌ ذكره بالإسلام، وإذا حضر مجلسًا ذا شأن تذكّر الإسلام، وإذا مات إنسان وإذا ولد إنسان ربط ذلك كله بالإسلام.

ثبت أن النبي ﷺ مرَّ على سبي فإذا امرأة في السبي تمشي، فإذا رأت صبيًّا أخذته وألزقته ببطنها وأرضعته وضمته، فتعجب النبي ﷺ من هذا المشهد، ثم ربطه بقضية الإسلام التي يعيش من أجلها، فقال لأصحابه: «هَلْ تَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَكِذَا فِي النَّارِ؟ قلنا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(١).

ومن تلك القوة التي تُطلب في تبني قضية الإسلام: أن يبنى الإنسان آراءه ونظراته، وتحليلاته على أساس مصلحة الإسلام، لا على أساسٍ من المصالح الشخصية، أو الأرضية!

تأمل خبيب بن عديٍّ وقد أرادت قريشُ قتله، وقالت له - تريد أن تظفر منه بكلمة قبل قتله تنال بها من نبينا ﷺ -: «أَيُسْرُكَ أَنْ مُحَمَّدًا مكانك وأنتك سالم في أهلك؟»، فيأتي جواب المؤمن الثابت اليقين الرابط الجأش القوي على دينه وإيمانه: «والله ما أحب أني سالم في أهلي، وأن محمدًا ﷺ تصيبه شوكة في رجله»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٣٢٦).

ثم يضع الميزان الحق بأبيات من الحكمة يقول فيها^(١):

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضَرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ
وَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَحْشُوعًا وَلَا جَزَعًا إِنِّي إِلَى اللَّهِ مَرْجِعِي

فما أعظم تلك الهمة، وما أقوى تلك القوة!

إن النفوس تخور قوتها عند الموت والمصارع، وأصحاب رسالة الإسلام تظهر
قوة نفوسهم عند الموت والمصارع!

ليس فقط في هذا الموطن، ولكن على كل حال يظهر التعلق بنصرة الإسلام.

يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة»^(٢).

ومن القوة في تبني قضية الإسلام: أن يكون الحبُّ والبغضُ والولاءُ والبراءُ في شأنِ
الإسلام وتعظيمه وتعظيم نبيه وحرماته!

دخل يهودٌ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: السام عليك، فأجابتهم من فورها
عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت: عليكم السام واللعنة^(٣)؛ تغضب لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب المثل في الغضب لله تعالى، فيما وقع بينه وبين
فنحاص اليهودي، يقول ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ راويًا: «قال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا
بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقر، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا... قال:

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره البخاري في الصحيح (٦٧/٢) معلقًا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٥٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فغضب أبو بكر، فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك، أي عدو الله. قال: فذهب فنحاص إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً: إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال، وضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] (١).

ومن القوة في تبني قضية الدين: تمثّل شخصية المجاهدين من الصحابة ومن بعدهم:

فهذا أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسمع في غزوة أحد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قتل، فيمرُّ على قوم من المسلمين قد ألقوا السلاح من أيديهم، فيقول لهم: ما بالكم قد ألقيتم السلاح؟! فقالوا: قُتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أنس: فما تصنعون بالحياة بعد رسول الله؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واندفع أنس ابن النضر في حومة القتال، فلقي سعد بن معاذ، فقال أنس: يا سعد، والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد، وانطلق في صفوف القتال فقاتل حتى قُتل، وما عرفته إلا أخته ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم (٢).

وهذا عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجل أعرج لا جهاد عليه، قد أسقط الله عنه الجهاد، أتى إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا رسول الله، أرايت إن قاتلت في

(١) سيرة ابن هشام (٢ / ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟- وكانت رجله عرجاء-
فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ. فقتلوه يوم أحدٍ هو وابن أخيه ومولى لهم، فمرَّ
عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةٌ فِي
الْجَنَّةِ. فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهما وبمولاهما فجُعِلُوا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ^(١).



(١) أخرجه أحمد (٢٢٥٥٣) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الموعظة الحادية عشرة

في قوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده، أمر بمحبته وطاعته، وأوجب توليه ونصرته، ودعا إلى تعظيمه وتوقيره، وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْفُسُهُمْ نَفْسًا وَأَعْلَاهُمْ قَدْرًا وَشَأْنًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وذلك في محبته وولايته، والمحبة عمل قلبي وشعور نفسي وميل داخلي، تظهر آثاره على الجوارح ولا بدَّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا توصف المحبة ولا تُحَدُّ بِحَدٍّ أوضح من المحبة، ولا أقرب إلى الفهم من لفظها؛ فإن المحبة لا تظهر على المحب بلفظه، وإنما تظهر عليه بشمائله»^(١).

(١) طريق الهجرتين (١/ ٤٦١).

وعلم المحبة شيء، ووجودها في القلب أمر آخر:

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبالجملة أصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المحب، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه بحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذه بعقله للمعاني الباطنة، كمحبة الصالحين، والعلماء وأهل الفضل مطلقاً، وقد يكون لإحسانه إليه ودفع المضار والمكاره عنه، وهذه المعاني كلها موجودة في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال خلال الجلال وأنواع الفضائل، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم، ودوام النعم والإبعاد عن الجحيم»^(١).

ومحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبع لمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ:

«فليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يُحَبَّ لذاته من كل وجهٍ إلا الله تعالى، وكل ما يُحَبُّ سواه فمحبة تبع لمحبة؛ فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يُحَبُّ لأجل الله، ويطاع لأجل الله، ويُتَّبَعُ لأجل الله»^(٢)، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعظم الواجبات:

قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وهذا يتأتى أولاً: بأن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إلى العبد من نفسه وأهله وماله ووولده ووالده، في الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٣).

(١) شرح صحيح مسلم (١٤/٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٢٦/٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وثانيًا: بأن لا يكون لعبد حُكْمٌ على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحكم على نفس العبد المسلم كما يحكم السيد على عبده، والوالد على ولده! قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «كفى بهذا حصاً وتنبهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظيم خطرها، واستحقاقه لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ قرع الله تعالى مَنْ كَانَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَوَلَدُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسَّتهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضلَّ ولم يهده الله!»^(١).

والسؤال هنا: لماذا يُحِبُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

والجواب:

أولاً: لأنه أعظم نعم الله على الخلق كافة:

قال الناظم^(٢):

وأن خير خلقه محمداً من جاءنا بالبينات والهدى

فهو طريق الهداية وسببها، والمبعوث بها صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ نَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي

(١) الشفا (٢/ ١٨).

(٢) معارج القبول شرح سلم الوصول، لحافظ الحكمي (١ / ٢٧).

بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى: ٥٣].

فالرسالة هي روح العالم ونوره وحياته، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢].

«ولما تلا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المائدة: ١١٨] رفع يديه حتى روي بياض إبطيه، ثم بكى وقال: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فأرسل الله ﷻ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ قُلْ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ»^(١).

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

ونبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو منة الله العظمى على المؤمنين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال الناظم^(٢):

وَمِنْ عَظِيمِ مَنَّةِ السَّلَامِ وَلُطْفِهِ بِسَائِرِ الْأَنَامِ
أَنْ أَرْشَدَ الْخَلْقَ إِلَى الْوُضُوعِ مُبَيِّنًا لِلْحَقِّ بِالرُّسُولِ

فهو صاحب القدر الرفيع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متن العقيدة السفارينية (ص ٨٣).

قال قتادة: «فليس متشهد ولا خطيب ولا مصلٍّ إلا ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»^(١).

ثانياً: لتربعه على عرش الخلّة:

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبيب الرحمن، وكلُّ مَنْ أَحَبَّهُ الله فهو محبوب عباد الله، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»^(٢).

ثالثاً: لتربعه على عرش الجمال والكمال خلقاً وخلُقاً:

أما في الخلق فإن كان الله تعالى قد أعطى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ شطر الحسن والجمال، فقد وهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمالاً يكسوه الجلال! وحسناً تكسوه المهابة!

ففي البخاري من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً سأله، فقال: «أكان وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل السيف؟ قال: بل مثل القمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٣). وفي رواية: «لا، بل كان مثل الشمس والقمر مستديرًا»^(٤).

وفي الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزهر اللون - أبيض مُشْرِبًا بحمرة - كأن عرقه اللؤلؤ، وما مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كفِّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!»^(٥).

والله لقد كان عَرَقُهُ أَطْيَبَ من الطيب، بل كانوا يطيبون الطيب بعرق الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٥٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٩٩٨) من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (١٩٧٣)، ومسلم (٢٣٣٠).

وفي الصحيحين من حديث أنس: «أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ كَانَتْ تَبْسُطُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِطْعًا، فَيَقِيلُ عِنْدَهَا عَلَى ذَلِكَ النِّطْعِ. قَالَ: فَإِذَا نَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَتْ مِنْ عَرَقِهِ وَشَعْرِهِ، فَجَمَعَتْهُ فِي قَارُورَةٍ، ثُمَّ جَمَعَتْهُ فِي سَكٍّ. قَالَ: فَلَمَّا حَضَرَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْوَفَاةُ، أَوْصَى إِلَيَّ أَنْ يُجْعَلَ فِي حَنُوطِهِ مِنْ ذَلِكَ السُّكِّ، قَالَ: فَجُعِلَ فِي حَنُوطِهِ»^(١).

وأما كمال خلقه فحدث ولا حرج! لقد حدث عنه القرآن الكريم، فقال: ﴿وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويتبدى كمال خلق الإنسان مع خادمه وزوجه؛ وذلك لأنهم أكثر مخالطة وملازمة مع نقص - في الغالب - في العقل والمعاشرة!

فهذا أنس خادمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلَا: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلَا: أَلَا صَنَعْتَ!»^(٢).

وهذه زوجه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(٣).

وأما مع سائر الخلق فقد قال الله تعالى - له وعنه -: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وما أكثر ما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»^(٤).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن نفسه -: «إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٦٠١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦، ٥٧١، ٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢، ٦١٩، ١٨٧٦).

بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَاتَّجَوَّزُ فِي صَلَاتِي؛ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ»^(١).

وقال - عن نفسه - أيضًا -: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ أَعَلَّمُكُمْ»^(٢).

فهو يُحِبُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه أعظم وأكمل الخلق خلقًا وخلقًا.

خُلِقَ كَمَا خَطَرَ النَّسِي مُمْ فَهَزَّ أَعْطَفَ النَّبَاتِ
وَشَمَائِلُ عُلوِيَّة أَصْفَى مِنَ الْمَاءِ الْفِرَاتِ

هذا، ومن علامات محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

١- الاشتياق إليه وتمني رؤيته، ولو منامًا:

مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا اشْتَاقَ إِلَيْهِ، وَتَاقَتْ نَفْسُهُ لَهُ، وَبَحِثَتْ عَنْ سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَتَمَنَّتْ لِقَاءَهُ إِنْ أَمَكْنَ وَإِنْ لَمْ يَمَكْنَ، وَكَذَا مَحَبَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْمِلُ عَلَى تَمَنِّي رُؤْيَيْهِ، وَالتَّشَوُّقِ إِلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَوْ مِنْامًا.

خَيَالُكَ فِي ذِهْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي وَمُثْوَاكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ!

بل لو خيّر المحب الصادق بين أن يتنازل عن حظوظه من الدنيا ومتاعها وبين رؤية وجهه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاختر رؤيته، ولو منامًا!

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلَا يَرَانِي، ثُمَّ لَأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مَعَهُمْ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٧٠٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٣٦٨)، والنسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٤)، ومسلم (٣٥٨٩).

وهذا في حق أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فروية أحدهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل لديه وأحظى من أهله وماله!

وفيمن أحبوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يروه واشتقت قلوبهم إليه يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَشَدَّ أُمَّتِي لِي حُبًّا: نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدَهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»^(١).
قال أنس: «قَلَّ لَيْلَةٌ تَأْتِي عَلَيَّ إِلَّا وَأَنَا أَرَى فِيهَا خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَنْسُ يَقُولُ ذَلِكَ وَتَدْمَعُ عَيْنَاهُ!»^(٢).

وفي ترجمة عبيدة السلماني - وهو من التابعين من أصحاب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه قيل له: «إِنْ عِنْدَنَا مِنْ شَعَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: لَأَنْ يَكُونَ عِنْدِي مِنْهُ شَعْرَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ صَفْرَاءٍ وَبَيْضَاءٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ. قَالَ الذَّهَبِيُّ: قُلْتُ: هَذَا الْقَوْلُ مِنْ عَبِيدَةَ هُوَ مَعْيَارُ كَمَالِ الْحُبِّ، وَهُوَ أَنْ يُوَثِّرَ شَعْرَةٌ نَبَوِيَّةٌ عَلَى كُلِّ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ بِأَيْدِي النَّاسِ»^(٣).
ولما رجع الأشعريون إلى بلادهم بعد لقيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا - وهم يرتجزون -:

«غَدَا نَلْقَى الْأَحِبَّ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ»^(٤)

وقد أحسن من قال:

أُحِبُّكَ لَا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبُوتِي أَفْسَرُ مَاذَا؟ وَالْهَوَى لَا يُفَسِّرُ

٢- البكاء شوقاً إليه، والبكاء عند ذكره:

وَالدَّمْعُ يُعْرِبُ مَا لَا يُعْرِبُ الْكَلِمُ وَالِدَّمْعُ عَذْلٌ وَبَعْضُ الْقَوْلِ مُتَّهَمٌ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢٦٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٢/٤).

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٢٦) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صعد الصديق المنبر مرّة بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعام، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامي الأول يقول: فلما أراد أن يحكي كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى!!^(١).

ولما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ. فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا!»^(٢).

إن عينه لتسيل خوفاً من الفراق وإشفافاً منه قبل حصوله، كما تسيل عند الفراق!

كَيْفَ السَّبِيلُ لِكْتُمِ أَسْرَارِ الْهَوَى وَلِسَانُ دَمْعِي بِالْغَرَامِ يَتَرَجَّمُ

ولما حضرته رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ منيته قال - عند موته - : «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قالوا: يوم الاثنين، قال: فَإِنْ مِتُّ لَيْلَتِي فَلَا تَنْتَظِرُوا بِي الْغَدَ؛ فَإِنْ أَحَبَّ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي إِلَيَّ أَقْرِبُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٣).

«ولما حضرت المنية عمرَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ أرسل عبد الله يستأذن أم المؤمنين في أن يدفن بجوار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه، فلما دخل عليه ابنه عبد الله قال: ما لديك؟ قال: الذي تحب - يا أمير المؤمنين - أذنت، قال: الحمد لله، ما كان من شيءٍ أهم إليَّ من ذلك»^(٤).

وعن الشعبي قال: «جاء رجلٌ من الأنصار إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: لأنّ أحب إلي من نفسي وولدي وأهلي ومالي، ولولا أنني آتيك فأراك لظننت أنني سأموت، وبكى الأنصاري، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَبْكَاكَ؟ فقال: ذكرت أنك ستموت ونموت، فترفع مع النبيين، ونحن إذا دخلنا الجنة كنا دونك، فلم يخبره النبي

(١) أخرجه أحمد (٦)، والترمذي (٣٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٤٥) من حديث عائشة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٠).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْمَا﴾ [النساء: ١١]، فَقَالَ: أَبَشِّرْ^(١).

ولما سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ عَمْرِو بْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ كَانَ حُبُّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ - وَاللَّهِ - أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَا»^(٢).

وَهَلْ يُطِيقُ الْمَرْءُ سِتْرَ الْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَوْلَى عَلَى لُبِّهِ

وفي حديث عمرو بن ميمون: «أَنَّهُ اخْتَلَفَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ سَنَةً وَأَنَّهُ مَا سَمِعَهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا أَنَّهُ حَدَّثَ يَوْمًا وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ عَلَاهُ كَرْبٌ، حَتَّى رَأَيْتَ الْعِرْقَ يَتَحَدَّرُ عَنْ جَبْهَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - أَوْ فَوْقَ ذَا، أَوْ مَا دُونَ ذَا، ثُمَّ انْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ، وَاعْغُرُورَقَتْ عَيْنَاهُ»^(٣).

وَأَخَذَ مَالِكٌ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ لَمَّا رَأَاهُ بِمَكَّةَ عِنْدَ زَمْزَمَ، فَمَا ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بَكَى حَتَّى يَرَحِمَهُ!^(٤).

وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «خَشْبَةٌ تَحْنُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَبْكِي شَوْقًا إِلَى لِقَائِهِ، أَفَلَا تَحْنُ قُلُوبُنَا وَتَشْتَاقُ، وَتَبْكِي عَيُونُنَا رَغْبَةً فِي اللَّقَاءِ؟!»^(٥).

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ (١٣١٧).

(٢) الشَّافِعِيُّ بِتَعْرِيفِ حَقِيقِ الْمَصْطَفَى، لِلْقَاضِي عِيَاضٍ (٢/ ٢٢).

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٣٢١)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٣).

(٤) تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ، لِلْقَاضِي عِيَاضٍ (١/ ١٣٩).

(٥) الشَّافِعِيُّ (١/ ٣٠٥).

وكان عامر بن عبد الله بن الزبير إذا ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع^(١).

ومن أعجب البكاء: البكاء فرحاً برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولقائه وصحبته: «لما دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصديق وعنده ابتناه أسماء وعائشة قال له: أخرج عني مَنْ عندك، قال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك فذاك أبي وأمي؟ قال: إن الله أذن لي بالخروج والهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: الصحبة!»

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحد يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر - يومئذ - يبكي^(٢).

قال الشاعر:

طَفَحَ الشُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى أَتَنَّى مِنْ فَرَطِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي!

وقال آخر:

وَمِنْ عَجَبِ أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَيَسْتَأْفُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي

وقال غيره:

فَعَلِمْتُ أَنَّ مِنَ الدُّمُوعِ مُحَدَّثًا وَعَلِمْتُ أَنَّ مِنَ الْحَدِيثِ دُمُوعًا

(١) المصدر السابق (١/٣٤٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢/٣٧٧).

٣. تفديّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنفس والنفيس قولاً وعملاً:

وهذا كان دأب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وينبغي أن يكون هكذا حال كل محب!
استقبلت امرأة أنصارية يوم أُحُد بخبر موت أبيها وأخيها وزوجها وابنها، وهي تقول: «ما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيقولون: أملك! حتى دُفعت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخذت بناصية ثوبه، ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من عطب»^(١).

وكانت أنصارية أخرى من بني ذبيان قد أصيب زوجها وأخوها يوم أُحُد فلما نكحوا إليها قالت: «ما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، فقالت: أرونيه أنظر إليه فأشاروا لها إليه، حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدُ جليل!»^(٢).

مِنْ أَبِي وَأُمِّي أَنْتَ أَقْرَبُ مُذْ رَأَى وَجْهَكَ طَرْفِي الْمُعْجَبُ

ولما أبطأ الخبر على النساء بالمدينة يوم أُحُد خرجن يستقبلن الناس، فإذا رجلاً مقتولاً على بعير، فقالت امرأة من الأنصار: من هذان؟ قالوا: فلان وفلان أخوها وزوجها، أو زوجها وابنها، فقالت: ما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالوا: حي، قالت: فلا أبالي، يتخذ الله من عباده الشهداء.

قال الراوي: فنزل القرآن على وفق ما قالت: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]^(٣).

هذه الأنصارية، أو تلك المهاجرة كانت في الجاهلية تملأ الدنيا صراخاً وعويلًا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٤٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧١ / ٢).

(٢) المغازي، للواقدي (٢٩٢ / ١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧٧٤ / ٣).

ولطمًا وشقًا للجيوب، وشعرًا على فقد حبيب، تنظر في إسلامها لسلامة رسولها
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتفتديه بأبيها وابنها وأخيها وزوجها!

إن أحدًا بمثابة محطة مؤلمة في طريق طويل من التضحيات! وكما كشفت عن
معادن الحب لدى النساء فقد أبانت عن ذلك بحق الرجال!

فَلَوْ قَالَ لِي مِتْ سَمْعًا وَطَاعَةً وَقُلْتُ لِدَاعِي الْمَوْتِ أَهْلًا وَمَرْحَبًا

واسمع إلى كلمات الأصحاب يومها، يوم أشيع قتله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال الأول: «لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيكم عين تطرف،
ثم تقدم فقاتل حتى قُتِلَ»^(١).

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ بِالنَّفْسِ دُونَ حَبِيبِهِ فَمَا هُوَ إِلَّا مَازِقُ الْوُدِّ كَاذِبُهُ
فَاجْمَعْ بِمَنْ أَهْوَاهُ شَمْلِي عَاجِلًا يَا جَامِعَ الْأَرْوَاحِ بَعْدَ شَتَاتِهَا
كيف كانت محبة من قال له يوم أُحُد: «لا تُشْرِفْ يا رسول الله! لا يصيبك سهم
عَرَبٌ، نفسي دون نفسك، نحري دون نحرك!»^(٢).

قال قيس بن أبي حازم: «رأيت يد طلحة شلاء وقى بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٣)
يعني: يوم أحد!

ماذا استقر في قلوب اثني عشر رجلًا من الأنصار قاتلوا دون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
في أحد حتى قتلوا واحدًا تلو الآخر، حتى كان آخرهم موتًا من وسد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
خده على رجله الشريفة؟!

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٠٥٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٦٣).

أما عن مصعب بن عمير، أو أنس بن النضر فحدث ولا حرج! صح في كل واحد منهما:

رَوْضَةُ الْحَقِّ ارْتَوَتْ مِنْ دَمِهِ عَزَّ أَهْلُ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا بِهِ

أُحْدُ محطة في طريق طويل بدأ يوم أن ضمَّ الملك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار قائلاً له: اقرأ، ثم كانت لحظة الختام لهذا الطريق يوم أن أزاح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّتر ينظر إلى أصحابه وقد قاموا في صلاتهم خاشعين، فارتاحت نفسه لمشهدهم، وأطمأن قلبه لمقامهم، وانفرجت شفتاه بابتسامة أخيرة في هذه الحياة بمناسبة إتمام الله الدين والمنَّة، واكتمال الفضل والنعمة.

وأخيراً فإن الحب ما شهدت به الأعداء!

عن عروة بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت مَلَكًا قَطُّ، يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمداً، والله إن تنخَّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوءه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحَدِّثُونَ النظر تعظيماً له»^(١).

لَا بِكَ السُّوءُ وَلَكِنْ كَانَ بِي وَبِنَفْسِي وَبِأُمِّي وَأَبِي

قال أنس: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفصنا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأيدي، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا!»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣١٢)، والترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (١٦٣١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- حب آل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمهات المؤمنين:

قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وفي الحديث: «ارْقُبُوا مُحَمَّدًا فِي أَهْلِ بَيْتِهِ»^(١).

وفي الحديث - أيضًا - : «وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»^(٢).

وهم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، وزوجاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أجمعين.

وفي المسانيد والسنن: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال - للعباس لما شكَا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جفوة قوم لهم، قال: «لَنْ يُصِيبُوا خَيْرًا حَتَّى يُحِبُّوكُمْ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي»^(٣).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا تُنْكَر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم؛ فإنهم ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعلي وذريته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^(٤).

قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نفسي بيده لقراءة رسول الله أحب إليَّ أن أصل من قرابتي»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٣٧١٣) من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٢١٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٢٠١/٧).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقدم العباس في الاستسقاء؛ لقربته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولسنّه وفضله^(١).

وكان عمر بن عبد العزيز يقول - لبعض أبناء الحسين-: «إذا كانت لك حاجة فأرسل إليّ، أو اكتب؛ فإني أستحي من الله أن يراك على بابي»^(٢).

وقال زيد بن ثابت وقد قَبَّل يد ابن عباس: «هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٣).

هـ- حب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال الله تعالى - في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَسْخَطْ عَلَيْهِ أَبَدًا، وَكُلٌّ مِنْ أَخْبَرِ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] قال العلماء: هذا وصف لجميع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٥).

قال مالك: «بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام قالوا: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا»^(٦).

(١) أخرجه البخاري (١٠١٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الشفا (٤٩/٢).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر (١٢٦/٤).

(٤) ينظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية (ص ٥٧٢).

(٥) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٤٤٦/٧).

(٦) تفسير ابن كثير (٣٦٢/٧).

وفي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].
وفيهم أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وفي الحديث: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَّفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١).

وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ»^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ»^(٣).

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَلَمُقَامَ أَحَدِهِمْ سَاعَةَ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ»^(٤).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَأَدْنَاهُمْ صَحْبَةً هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِينَ لَمْ يَرَوْهُ، وَلَوْ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٦٢).

لقوا الله بجميع الأعمال»^(١).

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وفضيلة الصلوة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بالقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(٢).

يَا سَاكِنِي أَكْنَافَ طَيْبَةٍ كُلُّكُمْ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ حَبِيبُ

ومن سب جميعهم كفر، أو فسَّقهم جميعاً إلا نفرًا قليلاً؛ لأنه مكذب لما ثبت في القرآن في غير موضع من الرضا عنهم، والثناء عليهم.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام»^(٣).

وقال مالك - ووافقه الشافعي -: «لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» [الفتح: ٢٩] «من أغاظه الصحابة فهو كافر»^(٤).

لِلَّهِ أَحْبَابٌ مَّضَوْا مَا مِثْلُهُمْ بَيْنَ الْوَرَى فِي الصَّالِحِينَ نَظِيرُ

٦- كثرة الصلاة والسلام على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ»^(٥).

(١) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص ٢١٠).

(٢) شرح النووي على مسلم (٩٣/١٦).

(٣) الصارم المسلول، لابن تيمية (ص ٥٨٧).

(٤) السنة، لأبي بكر الخلال (٧٦٠).

(٥) أخرجه أحمد (١١٩٩٨)، والنسائي (١٢٩٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي رواية: «... وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ»^(١).

فالمحبون بالصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلهجون، وبها يُعرفون، يُكثرون منها في أيام الجمع ولياليها، وعند الإصباح والإمساء وفي مجالسهم، وكلماتهم وخطبهم بالصلاة والسلام على النبي يستفتحون.

ومن التقصير فيها، أو تركها ينهون ويحذرون، ومن قصّر فيها بخلوه وحذروه، بل بخله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عَنْدهُ ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»^(٢).

٧- حب سنته وتعظيمها واتباعها والدعوة إليها والذود عنها:

حب السنة من محبة صاحبها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل اتباعها من محبة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وإذا كانت علامة محبة الله تعالى اتباع سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنها بالضرورة علامة على محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا صح قول القائل في من يحب الله:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ هَذَا لَعْمَرِي فِي الْقِيَاسِ شَنِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وهو يصح في حق من يحب رسول الله من باب أولى!

فلزوم السنة بالاتباع دليل المحبة وطريق الجنة!

(١) أخرجه النسائي (١٢٩٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٦)، والترمذي (٣٥٤٦) من حديث الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَنْ ادَّعَى حُبَّ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ فَاسْتَشْهَدُوا أَخْلَاقَهُ وَسِيرَهُ

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَنْ أَحَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مُحِبَّةً صَادِقَةً مِنْ قَلْبِهِ أَوْجِبَ لَهُ ذَلِكَ أَنْ يُحِبَّ بِقَلْبِهِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيُكْرَهُ مَا يُكْرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَرْضَى مَا يَرْضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَسْخُطُ مَا يَسْخُطُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِجَوَارِحِهِ بِمُقْتَضَى هَذَا الْحُبِّ وَالْبَغْضِ، فَإِنْ عَمِلَ بِجَوَارِحِهِ شَيْئًا يَخَالِفُ ذَلِكَ بِأَنْ ارْتَكَبَ بَعْضَ مَا يُكْرَهُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ تَرَكَ بَعْضَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مَعَ وَجُوبِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى نَقْصِ مُحِبَّتِهِ الْوَاجِبَةِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَلِكَ، وَيَرْجِعَ إِلَى تَكْمِيلِ الْمُحِبَّةِ الْوَاجِبَةِ»^(١).

فمخالفة الاتباع تقدح في المحبة مطلقاً، فَمَنْ فَرَّطَ فِي وَاجِبٍ، أَوْ ارْتَكَبَ مُحَرَّمًا فَقَدْ نَقَصَتْ مُحِبَّتُهُ الْوَاجِبَةَ، وَمِنْ قَصْرٍ فِي مُسْتَحَبٍّ، أَوْ ارْتَكَبَ مَكْرُوهًا فَقَدْ نَقَصَتْ مُحِبَّتُهُ الْمُسْتَحَبَّةَ.

وفي كلتا الحالتين فإن للمسلم - ولو عاصياً - نصيباً من أصل المحبة، وهي باقية ولو ارتكب الكبائر.

وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ غَيْرَ مَرَّةٍ، فَلَعَنَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: «لَا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٢)، فَأُثْبِتَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْلَ الْمُحِبَّةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَعَ الْكَبِيرَةِ.

فالاتباع وترك الابتداع، واقتفاء أثر الحبيب المصطفى والاهتداء بسنة النبي المرتضى برهان المحبة الذي لا يكذب أبداً.

(١) جامع العلوم والحكم (١/٣٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَلَا تُصَدِّقْ وَدَادًا قَبْلَ شَاهِدِهِ فَالْكُحْلُ أَشْبَهُ فِي الْعَيْنَيْنِ بِالْكَحْلِ

فمن أحب محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان هواه تبعاً لما جاء به، وكان صورة حية لا تباع سنته والعمل بطريقته في كل شأنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا خِدُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧].

وما الاتباع في حقيقته إلا توحيد المتبوع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو شطر الشهادة الثاني؛ إذ شطرها الأول توحيد المعبود سبحانه، أما شطرها الثاني فتوحيد المتبوع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهو تصديقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر وحذر! وألا يعارض أمره، أو نهيه بترخص جافٍ ولا بتشدّد غالٍ.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

قال الإمام أحمد رحمه الله: «أمرنا أن نقنّدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع»^(٢).

وحقيقة الاتباع: أن نعمل كما عمل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأجل أنه عمل!

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(٣).

وقال: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٦).

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة (ص ٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

واتباع سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو اتباع القرآن، وهو اتباع الشريعة، وهو اتباع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهو اتباع الصراط المستقيم.

أما أنه اتباع للقرآن؛ فلقلوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وأما أنه اتباع للشريعة؛ فلقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨].

وأما أنه اتباع للسابقين الأولين؛ فلقلوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأما أنه اتباع للصراط المستقيم؛ فلقلوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ومخالفة منهج الاتباع زيغ أو ابتداع، ويعقب العقوبة بلا نزاع.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وفي مقابل الاتباع الحق هناك أنواع من الاتباع الباطل، فاتباع الأهواء والشهوات والشبهات كل ذلك ينافي اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويناقضه.

وصدق الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والمخالفون عن الاتباع يُزادون عن حوضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا لِيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ

حَوْضِي كَمَا يُدَادُ الْبَعِيرُ الضَّالَّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا»^(١).

عناية السلف بالسنة وتعظيمهم لها:

١- عناية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

ليس كابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الصَّحَابَةِ عناية بسنن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأثاره ورعاية لها! فقد كان يصلي حيث صلى، ويمشي حيث مشى، ويقبل حيث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما حَدَّثَ ابن عمر بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ، وَبُيُوتَهُنَّ خَيْرٌ لَّهُنَّ»، فقال ابن لعبد الله بن عمر: بلى - والله - لنمنعهن، فقال ابن عمر: تسمعني أحدث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقول: ما تقول!«^(٢).

ويقول الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»^(٣).

ولما أرادوا منه تأخير جيش أسامة أبي، وقال: «والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٤).

وها هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي في نعلين، ثم خلعهما في أثناء صلاته، فألقى الصحابة نعالهم في صلاتهم من فورهم^(٥).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لعلي بعد أن دفع إليه الراية يوم خيبر -: «امش، وَلَا تَلْتَفِتْ،

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥٤٦٨)، وأبو داود (٥٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) البداية والنهاية، لابن كثير (٣٣٥/٦).

(٥) أخرجه أحمد (١١١٥٣)، وأبو داود (٦٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ. قَالَ: فَسَارَ عَلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ وَقَفَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَصَرَخَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَى مَاذَا أَقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(١).

واتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتماً من ذهب، فاتخذوا خواتيم من ذهب، ثم نبذه، فنبذ الناس خواتيمهم، وطرح خاتم الذهب من يد أحدهم فما رفعه من الأرض بعد ذلك^(٢).

٢- وكذلك كان السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

وقد تقدم أن كثيراً منهم كمالك رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحديثه تغير لونه وانحنى^(٣)، وكان إذا حَدَّثَ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توضأ وتهيأ، ولبس ثيابه، ثم يحدث، فسئل عن ذلك، فقال: أُحِبُّ أَنْ أَعْظِمَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا أَحَدُّثُ بِهِ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ مَتَمَكَّنًا!^(٤).

وجاء رجل إلى ابن المسيب في مرضه وهو مضطجع فسأله عن حديث فقال: «أقعدوني، فأقعدوه، فقال: إني أكره أن أُحَدِّثَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا مضطجع»^(٥).

وكان قتادة لا يُحَدِّثُ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ، وَلَا يَقْرَأُ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا عَلَى وَضوء^(٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٩٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) الشفاء، للقاضي عياض (٤٢/٢).

(٤) المصدر السابق (٤٥/٢).

(٥) حلية الأولياء (١٦٩/٢).

(٦) المصدر السابق (٣٣٥/٢).

وَقَارَّ وَحُبُّ مَنْ شَذَا الْمِسْكِ أَطْيَبُ وَمِنْ قَطَرَاتِ الْمُزْنِ أَصْفَى وَأَعَذَبُ

ثم إنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عُنُوا العناية الفائقة بروايتها وأدائها، جيلاً فجيل إلى أن دونت محفوظةً بحفظ الله، فالحمد لله.

وَهَلْ يُرْتَجَى لِلْأَمْرِ إِلَّا رِجَالُهُ وَيَأْتِي بِوَبْلِ الْمُزْنِ إِلَّا السَّحَائِبُ

فאלلهم كما أحببنا نبينا ولم نلقه في الدنيا فلا تفرق بيننا وبينه في الآخرة حتى تدخلنا مدخله، وتوردنا حوضه، وتسقينا من يده الشريفة شربة لا نظماً بعدها أبداً، برحمتك يا أرحم الراحمين.



الموعظة الثانية عشرة

في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

[آل عمران: ١١٠].

الحمد لله الذي جعل أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير أمة أخرجت للناس، وخلع عليها خير وصف، وخصها بخير كتاب أنزله ورسول أرسله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد قال سبحانه - مخاطباً أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأصالة، ومن جاء بعدهم على منهجهم إلى يوم القيامة -: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿كُنْتُمْ﴾: أي: في علم الله السابق المحيط، وفي اللوح المحفوظ.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، أي: أنتم، والخطاب للصحابة، ولمن انتسب إلى منهجهم إلى يوم القيامة، فأنتم خير الناس للناس، وأنتم خير أمة، ومعناه: ما أخرج الله للناس أمة خيراً من أمة أحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهم خير أمة أظهرت وأخرجت للناس.

وقيل: هي متعلقة بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، والعبرة

بعموم اللفظ، فالخطاب للأمة بأسرها، لا في زمن الأوائل فحسب، بل وفي زمن الأواخر، وقد ذكر الله السابقين وأصحاب اليمين في الأوائل والأواخر.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ»^(١).

وفي الحديث: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

فأوائلنا وأواخرنا داخلون في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

عن أبي هريرة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: «خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»^(٣)، ومثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وغيرهم^(٤).

﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: صفة لأمة، أي: خير أمة أظهرت لهم، أو خير الناس.

والخيرية بمعنى: نفع الناس، ومن الخيرية: أنهم يقاتلون الناس لمصلحة الناس.

وعند الترمذي: «أَنْتُمْ تُبْعَثُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(٥).

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾:

﴿تَأْمُرُونَ﴾ استئناف مبين لسبب الخيرية.

فلما سبق أن قال الله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٨٧)، وابن ماجه (٨) من حديث أبي عتبة الخولاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٨)، ومسلم (٢٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: الدر المنثور، للسيوطي (٢/ ٢٩٤).

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٠١٥)، والترمذي (٣٠٠١) من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ولأنه قد يمثل بعضنا وقد لا يمثل - جاء بالآية التي تدل على الامتثال والتكريم معاً، فقال تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، والمعروف: ما عُرف حسنه شرعاً وعقلاً، والمنكر بضده.

لماذا قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان؟

لأن دلالتهما على الخيرية ونفع الناس ودفع الشر والمفاسد عنهم أظهر، وفي الحديث: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَاهُمْ وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ، وَأَمْرُهُم بِالْمَعْرُوفِ، وَانْتِهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُم لِلرَّحِمِ»^(١).

والخيرية في هذه الأمة على هذه الشريطة؛ يعني: كنتم خير أمة، ما أمرتم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، وآمنتم بالله.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من سرّه أن يكون من هذه الأمة؛ فليؤدّ شرط الله فيها»^(٢).

والمعروف: كل حسن جميل، يعرف بجلالته، وعلو قدره ولا يجوز إطلاق هذه الصفة على القبيح، وإن كان يعرف؛ لأنه بمنزلة ما لا يعرف؛ لخموله وسقوطه.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أي: لكان خيراً لهم من دعوى الخيرية لأنفسهم التي لا دليل عليها، كما قال مالك بن الصيف ووهب بن يهودا لبعض الصحابة: «نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه»^(٣)، وهو خير لهم مما هم فيه من الكفر، أو بحصول الخير مرتين لهم.

(١) أخرجه أحمد (٢٧٤٣٤) من حديث درة بنت أبي لهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) الدر المنثور (٢/٢٩٤).

(٣) تفسير البغوي (٢/٨٩).

وللإنصاف الكامل جاء قوله: ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ فَقَدْ حَصَلَتْ لَهُ الْخَيْرِيَّةُ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكافرون المتمردون على الله ورسوله، فهم فاسقون في كفرهم لعلمهم بالحق وجحوده وفسقهم عنه.

خصائص خيرية هذه الأمة:

وخصائص خيرية الأمة المحمدية كثيرة عديدة، ومن ذلك:

١ - إيمانها بكتب الله المنزل ورسوله كافة. قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

٢ - أنها خير الأمم وأحسنها كتاباً: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ [الرَّؤْي: ٢٣].

وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

٣ - أنها خير الأمم نبياً ورسولاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُ إِلَيْهَا النَّاسُ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا خَاتَمُ

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّبِيِّينَ»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٢).

ومن خصائص هذه الأمة ومميزاتها:

١- أنها لا تجمع على ضلالة، فهي أمة الحق:

فإجماعها معصوم عن الخطأ والغلط، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أَوْ قَالَ: أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُّ اللَّهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ»^(٣).

٢- أنها أمة منصور:

«لَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٤)، «وَلَا تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ»^(٥).

٣- أنها أمة مرحومة:

«إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ»^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٥٩٧) من حديث معاوية بن قرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه أحمد (١٩٦٧٨)، وأبو داود (٤٢٧٨) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- أنها أمة العفو والسعة:

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١).

٥- أنها أمة الشهادة على الخلق:

قال تعالى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].
وفي الحديث: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(٢).

٦- أنها أول الأمم جوازاً على الصراط:

ففي الحديث: «فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ»^(٣).

وفي الحديث- أيضاً-: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٤).

٧- أن من الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب:

فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْعَشْرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتُمُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ^(١).

٨- أنها الأمة المحفوظة من الهلاك والاستئصال:

فهي لا تهلك بسنة عامة، ولا يسلط الله عليها عدواً من غيرها يستأصل شأفتها، ولو اجتمع عليها كل أهل الأرض؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيَتِ الْكَزْنَينِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أُعْطِيكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(٢).

٩- أن الله تعالى رفع عنها الأصار والأغلال التي كانت على الأمم قبلها:

فأحلَّ لها كثيراً مما حرَّم على غيرها، ولم يجعل عليها من حرج ولا عنت ولا شدة، بل يُسر وفرج، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[المائدة: ٦]، وقال: ﴿هُوَ أَجْتَبَلَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أُرْسِلْتُ بِخَيْفَةٍ سَمْحَةٍ»^(١).

وقال: «لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فَسْحَةً»^(٢).

وقال- لرسله وسفرائه ودعاته-: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُنْفِرَا»^(٣)، قالها لمعاذ، ولأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين بعثهما إلى اليمن.

فالإيمان بهذه الأمة الخيرة الوسطية لا يتزعزع، فهي أمة منصوره وإن استطال عليها أعداؤها برهة من الزمان، وهي أمة خيرة ولو تسلط عليها بعض الأشرار من بنيتها فساموها سوء العذاب، وأوردوها موارد الافتراق والشتات، لها عودة قريبة، وكرة أكيدة ترفع فيها هامتها، وتستعلي على أعدائها، فيوم عزها قريب، وما ذلك على الله بعزيز!

فاللهم استعملنا في نهضتها بالإسلام، واجعلنا من أبنائها البارين، وجندها المخلصين، ومن جيل النصر والتمكين، يا قوي يا متين، والحمد لله رب العالمين.



(١) سبق تخريجه (ص ٢٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الموعظة الثالثة عشرة

في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ
أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعْنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]

الحمد لله دعا عباده إلى دار السلام، وأقام على طريقها أدلاء من خير الأنام، فبلغوا رسالات ربهم، وهدوا العباد إلى الله طريقاً مستقيماً، وصلوات الله وسلامه عليهم، وعلى من اهتدى بهديهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الحديث عن الدعوة إلى الله تبارك وتعالى حديثٌ عن عمل قام به الله ﷻ بنفسه، فالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى دعا إلى دار السلام، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، والله تعالى دعا إلى الجنة والمغفرة، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وله دعوة الحق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

الدعوة وظيفته الأنبياء والمرسلين:

ثم إن الدعوة هي وظيفة أنبياء الله تعالى ومرسليه، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿ [الأحزاب:

٤٥-٤٦]، وقد أمر تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمراً خاصاً بالدعوة إلى الله، فقال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الحج: ٦٧]، وقال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، فحقَّ على كل مسلم - إذا - أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى، وأن يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أن الدعوة إلى الله هي سبيل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَقَوْلُهُ: ﴿ادْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ تَفْسِيرٌ لِسَبِيلِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا فَسَبِيلُهُ وَسَبِيلُ أَتْبَاعِهِ: الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللَّهِ فَلَيْسَ عَلَى سَبِيلِهِ»^(١).

وقال - أيضاً - رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه وضمن له حفظه، وعصمته من الناس، وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه، وتبليغهم له، وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً، وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه»^(٢).

وقد بلغ من جهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحرصه على الدعوة أن بلغ دين الله للجنِّ، كما بلغه للإنس، ودعاهم إلى الله، كما دعا الإنس إلى الله، وقد ذكر ذلك ربنا في كتابه، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص ٢١).

(٢) جلاء الأفهام، لابن القيم (ص ٤١٥).

فُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وجوب الدعوة إلى الله والأمر بها:

والدعوة إلى الله واجب شرعي، وعمل مَرْضِي، أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(١)، وهذا على سبيل الإلزام ولو بالقليل من القرآن، وأَقْلَهُ آية يبلغها الإنسان لغيره، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشْهَدُ الْجَمْعُ الْكَثِيرَ الْغَفِيرَ وَيَأْمُرُهُمْ، فيقول: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»^(٢)، كان هذا في حجة الوداع، وكان الخطاب عامًا للعالم ولغيره، ولل كبير والصغير، وللذكر والأنثى، فالواجب على كل أحد أن يدعو إلى الله بالقدر الذي يستطيعه، وبالقدر الذي عِلِمَهُ إذا لم يقم به غيره، فأما ما قام به غيره فإنه لا يُطَالَبُ به، وما عجز عنه الإنسان فإنه يسقط عنه.

والداعي إلى الله إذا تعرَّض لواجب الدعوة فإنما هو على الحقيقة يتعرَّض لفضل الله تعالى ولرحمته، يتعرَّض لأن يدخل في عموم من دعا لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنضارة الوجه، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَضَّرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»^(٣)، وليس من شرط المبلِّغ أن يكون عالمًا متفقهًا، بل يكفي أن يكون لما ينقل حافظًا فاهمًا ضابطًا.

وإذا كانت الدعوة إلى الله وظيفة الجميع - كلُّ فيما يقدر عليه - فلا يمنع هذا من

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٤١٥٧)، والترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن يتخصص فيها بعض أهل الإسلام؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالدعوة إلى الله تعالى إما أن تكون واجبة وجوباً عينياً على كل أحد، أو أن تكون واجبة وجوباً كفائياً.

وليس لأحد أن يحتج - بفهم سقيم - بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]؛ ذلك أن الهداية التي لا تنفك عن المؤمن أن يظل داعياً إلى الله، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، داعياً لدين ربه ﷻ، ناصراً له، فلا يهرب من ذي سلطان إذا كان مهتدياً وكان إلى الله تعالى داعياً، ولا يخاف من أهل الكفران أو العصيان إذا كان بأمر الدعوة إلى الله قائماً، وقد عالج الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الفهم السقيم، فقال: «يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها، وإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»^(١).

وقد علق على هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: «ترك أهل العلم لتبليغ الدين ترك أهل القتال للجهاد، وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم، ترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم»^(٢).

وقد علم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذا وفقهوه، فكانت أعمالهم قبل كلماتهم نبأاً وأسوة للأمة بأسرها في الدعوة إلى الله تعالى، فلم تنجل سنو الخلافة المباركة حتى طبق الإسلام الشرق والغرب، ورفرف لواء الإسلام على أرجاء المعمورة.

(١) أخرجه أحمد (٣٠)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨٨/٢٨).

والصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب لنا المثل في هذا، يقول عنه ابن إسحاق - في سيرته -:
«فأسلم على يديه - فيما بلغني - الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله،
وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف»^(١).

انظر قدر هؤلاء في الإسلام، وكلهم أسلم على ידי الصديق، فلا غرو أن كان
الصديق رضي الله عنه أثقل هذه الأمة ميزاناً!
أولويات الدعوة إلى الله ﷻ:

وللدعوة إلى الله ﷻ أولويات:

فدعوة تكون إلى الفرائض من قول وفعل وترك، ثم دعوة تكون إلى النوافل، وأول
الفرائض وأولها بالدعوة إليه: توحيد الله تعالى، قال جل من قائل عليمًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال ﷻ:
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:
٣٦]، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ علّم معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أرسله إلى أهل الكتاب باليمن
أنه سوف يقدم على أهل كتاب فليكن أول ما يدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى^(٢).

ويستتبع الأمر بالتوحيد النهي عن الشرك، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ
فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]،
والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حذّر من الشرك ومن ذرائعه وأسبابه، وكل ما يدعو إليه؛ حتى
بلغ من خوفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشرك على أمته أن حذّره قُبيل موته، فقال: «لَعَنَ اللَّهُ
الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ - يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»^(٣).

(١) السير، لمحمد بن إسحاق (ص ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الدعوة شاملة أمة الدعوة، وأمة الإجابة:

وإن قال قائل: من ندعو؟

فالجواب: ندعو الخلق كافة والبشر عامة؛ لأن رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت للناس كافة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقد دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل الشرك من عبدة الأصنام، وأهل الكفر من اليهود والنصارى، وأسلم على يديه جمع من كل هؤلاء؛ لهذا فإن أمة الدعوة: هي كل الخلق، وأمّا أمة الإجابة: فهم من أجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكما تُدعى أمة الدعوة تُدعى أمة الإجابة؛ فإنهم يدعون إلى الالتزام بكتاب ربهم وسنة نبيهم، والالتزام بالأخلاق القويمة، والعادات المستقيمة، ويُنهون عن المعاصي والإثم والعدوان وسائر المخالفات.

وسائل الدعوة إلى الله:

والدعوة إلى الله تعالى إنما تكون في كل وقت وعلى كل حال، ويُسلِّك لها كلُّ سبيل مشروع وسبب مباح، فقد دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله، وفعله، وإشارته، وإقراره، وقد رآه الصحابة رضي الله تعالى عنهم في حَجَّتِهِ وهو يدعوهم إلى الله، يأمرهم بالتوحيد، وينهاهم عن المخالفات بقوله وفعله صلى الله عليه وآله وسلم، يفعل فيفعلون، ويقول فيقولون، وينهى بقوله وفعله فينتهون، ولفضل الدعوة يتقلدون.

وقد استعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في دعوته القولية الترغيب والترهيب، وساق القصص وضرب الأمثال؛ وكل ذلك ليعلِّم أصحابه كيف تكون الدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

أولاً: الدعوة بالترغيب، والترهيب:

حفلت السنة النبوية بأنواع من الدعوة إلى الله بالموعظة البليغة التي تبين فضيلة الصالحات وحسن عاقبتها في الدنيا والآخرة، فترغب فيها نفوس أهل الخير، وتنبعث بها جوارحهم، وتحذر من قبح المعاصي والمخالفات سوء عاقبتها، فتنبض عنها نفوس المتقين، ولا تقارفها جوارحهم.

فمن أمثلة الترغيب: حديث أبي طويل شطب الممدود أنه أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، فلم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجةً ولا داجةً إلا أتاها، فهل له من توبة؟ قال: فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟ قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنت رسول الله. قال: نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُكَ اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهِنَّ، قال: وغدراقي وفجراتي؟ قال: نَعَمْ. قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى»^(١).

ومن أمثلة الترهيب: حديث أبي مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفي - يعني: يقول-: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قال: فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ: أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قال: فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً»^(٢).

وفي رواية أنه قال: «هو حر لوجه الله، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلْفَحْتَكَ النَّارُ»^(٣).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٤ / ٧) رقم (٧٢٣٥) من حديث أبي طويل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

وتارةً يُجْمَعُ في الدعوة بين الترغيب والترهيب، ومن أمثلة ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر الصلاة يوماً، فقال: «مَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُورٍ وَفِرْعَوْنٍ وَهَامَانَ وَأَبِي بَنٍ خَلْفٍ»^(١)، فتأمل هذا الترهيب الشديد الذي اجتمع مع الترغيب والوعد الأكيد.

وينبغي للداعية الموفق إذا أراد أن يُرَغِّبَ، أو أن يُرَهِّبَ أن يتعمد الصحيح المقبول من حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يجتنب الواهي والموضوع من الروايات؛ وذلك للتحذير الشديد الذي ورد في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢)، وقال: «لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ»^(٣)، وهذا من أشد ما يجب الحذر منه.

ثانياً: الدعوة بالقصة:

وقد دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذكر القصص، كما علمه الله تعالى في كتابه الذي قال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

ففي السنة قصص كثيرة: قصص تحث على الصدقة، وقصص تحث على الرحمة والرفقة، وقصص تحث على الصبر، وأخرى تحث على الشكر، وغير ذلك من القصص. تأمل قصة تلك المرأة التي عذبت في هرة سجنها حتى ماتت؛ فدخلت النار، لا

(١) أخرجه أحمد (٦٥٧٦)، وابن حبان (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٤) من حديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٦)، ومسلم (١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هي أطعمتها وسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، وإنما حبستها^(١)، هذه قصة حكاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبيّن عاقبة الظلم ولو للحيوان، وترك الإحسان ولو لغير بني الإنسان.

ثالثاً: الدعوة بالمثال:

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا إلى الله ﷻ بالأمثال التي تقرب الشيء المعنوي بذكر الشيء الحسي، فتقريب المعنى المعنوي بشيء محسوس هو طريقة القرآن: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، ﴿وَيَلَاكُ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد استعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الأمثال أحسن الوسائل والأساليب من القول والخط والرسم وغير ذلك، فعن عبد الله بن مسعود عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنه خط خطاً مربعاً، وخطاً وسط الخط المربع، وخطوطاً إلى جانب الخط الذي وسط الخط المربع، وخطاً خارجاً من الخط المربع، فقال: أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هَذَا الْإِنْسَانُ الْخَطُّ الْأَوْسَطُ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ إِلَى جَنْبِهِ الْأَعْرَاضُ تَنْهَشُهُ - أَوْ: تَنْهَشُهُ - مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَإِنْ أَخْطَاهُ هَذَا أَصَابَهُ هَذَا، وَالْخَطُّ الْمُرِيعُ الْأَجَلُ الْمُحِيطُ، وَالْخَطُّ الْخَارِجُ الْأَمَلُ»^(٢).

وضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلاً آخرَ لعلاقته وصلته بأنبياء الله تبارك وتعالى، فذكر: أن مثله ومثل الأنبياء كمثّل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجملّه إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون بهذا البيت فيحسنونه ويجميلونه لولا موضع من هذا البناء، وهو تلك اللبنة

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٥٢)، وابن ماجه (٤٢٣١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناقصة^(١)، فضرِبَ لنفسه المثل بأنه تلك اللبنة التي نقصت ذلك البناء العظيم، حتى إذا اكتمل بناء الأنبياء ببعثة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَمَّ بِنْيَانُ الرِّسَالَةِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ وَالتَّكَمُّلِ. وعلى هذا فالدعوة إلى الله تعالى أرفع مقامات العبد في الدنيا، وليست الدعوة حكرًا على أحد، بل وظيفة الأمة هي الدعوة إلى الله، وإقامة دين الله، وسياسة هذه الدنيا بهذا الدين العظيم.

نسأل الله تعالى أن يبلغنا منازل الدعوة إلى الله، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ﴾ [الزمر: ١٨].



(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الموعظة الواحدة عشرة

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة ١١١]

الحمد لله رب العالمين، أعلا بالجهاد منار الدين، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده، وعلى آله وصحبه الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وسلم تسليماً مزيداً، أما بعد:

فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فضل الجهاد في سبيل الله:

الجهاد ذروة سنام الإسلام ولا شك، وأصل عظيم من أصول الدعوة إلى الله تعالى ولا بد، وهو بيعة ماضية في أعناق المؤمنين، وهو الصفقة الرابعة في الدنيا والآخرة،

وأجره أعظم من أن يُحاط به!

قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «تَكْفَلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ - لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ - بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١).

وقد سأل معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ فقال معاذ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»^(٢).

بواعث الجهاد في سبيل الله تعالى:

الجهاد من أعظم وسائل إزالة العقبات وفتح الطريق أمام الدعوة والدعاة، فإن أعداء الإسلام وشريعته لن يتنازلوا - في الغالب - عما اغتصبوه من الأوطان والحقوق إلا إذا حُمِلوا على ذلك حملاً، ومهما قيل من تحقيق العمل السياسي لبعض المصالح، أو دفعه لبعض المفساد، فإن طريق تحرير المقدسات والأوطان، وإقامة سلطان الشريعة يمر - ولا بد - ببذل الأنفس والأموال في سبيل الله، ليس له غاية ينتهي إليها إلا إحدى الحسنيين: النصر، أو الشهادة.

وهدف الجهاد الأعظم: هداية الناس للإيمان، وتعبيدهم للواحد الديان، وإخراجهم من عبودية العباد إلى عبادة ربِّ العباد، وإخلاء العالم من الفساد، كما قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وفي الحديث: «بُعِثْتُ

(١) أخرجه البخاري (٣١٣٢)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»^(١)، وليس في هذا إكراهٌ لأحد على الدخول في الدين؛ إذ المتقرر في ديننا: أنه لا إكراه في الدين، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ هذه قاعدة الإسلام، لكن الجهاد يزيل العقبات، ويفتح الطريق أمام الدعوة والدعاة إلى الله ﷻ.

وسائل الجهاد في سبيل الله:

لا يخفى أن المعنى العام للجهاد يتناول استفراغَ كلِّ وسعٍ، وبذلَ كلِّ جهد في نصر هذا الدين، سواء أكان هذا النصر بالسيف والسنان، أو كان بالحجة والبيان، أو كان بالدعوة والإرشاد، وفي الحديث: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٢)، و«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٣).

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة من وسائل دعوة المؤمنين، فإن الجهاد وسيلة من وسائل الدفع عن المؤمنين، وطلب دعوة عموم الكفار والمشركين. والجهاد بالنفس والمال ماضٍ إلى يوم القيامة، وإنكار وجوبه إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وادعاء نسخه أو تخصيصه بجهاد الكلمة بدعة في الدين وضلالة، ونقص في العقل وسفاهة، وهو غفلة عن الواقع وجهالة؛ إذ الواقع اليوم يشهد أنه ما لم تُقَمَّ هذه الشعيرة في ديار المسلمين، فإن أعداء الإسلام المتكالبين المتداعين من كل حذب وصوب يسعون لاجتثاث الإسلام وأهله.

(١) أخرجه أحمد (٥١١٥) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤٠١١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٨٣٠)، والنسائي (٤٢٠٩) من حديث طارق بن شهاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حكم الجهاد في سبيل الله:

ثبت في الحديث عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»^(١).

والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال لدعوة الناس إلى الإسلام وإزالة كل الحواجز والعوائق التي تحول دون الدخول فيه فرض كفاية على مجموع الأمة، وقد يتعين في مواضع، منها:

- تعيين الإمام لشخص بعينه.
- وإذا استنفر الإمام أهل محلة.
- وعند حضور القتال إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان.
- ولاستنقاذ أسارى المسلمين من أيدي الكفار، ونحو ذلك.

من فقه الجهاد في سبيل الله:

الخروج للجهاد في سبيل الله لطلب العدو يُطلب فيه إذن الإمام وجوباً أو استحباباً فلا يُفْتَاتُ عليه، قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك»^(٢).

فإن خلا عنه - أي: الإمام - زمان أو مكان فيُطلب إذن أهل الحل والعقد من كل صاحب منهج علمي سديد، وعمل مبارك رشيد، ومن ناصرهم من ذوي الشوكة والسلطان.

وحين يتغلب عدو على بلد من بلاد الإسلام فيقتطع ويستلب أو يقهر أهله على

(١) أخرجه مسلم (١٩١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المغني، لابن قدامة (٣٦٨/١٠).

الخضوع لغير شرع الله، فعندئذ يتعين الدفع على كل قادر حاضر من أهل تلك الدار بإطلاق، ثم على من يليهم من المسلمين من أهل الآفاق حتى تُحمى بيضة المسلمين، وتُحفظ حوزة الدين.

وإذا كان هدف الجهاد الأعظم هو إزاحة هذه العقبات، وإزالة تلك النظم التي تحول بين الناس وبين قبول الإسلام، فإن هذا الهدف العظيم تدخل فيه أهداف جزئية، منها:

- رد اعتداء المعتدين.
- إزالة الفتنة عن المدعوين، وإرهاب أعداء الدين.
- تقوية دولة المسلمين.

وعن هذا الجهاد تتحقق مصالح كثيرة، منها:

- فضح المنافقين وتطهير الصف من رجسهم وإفكهم.
- تمحيص المؤمنين وتربيتهم على الصبر والثبات، والقيام بحق الله تبارك وتعالى، وحق هذا الدين.

الجهاد في سبيل الله رفعة وعزة:

والجهاد سبيل عزة هذه الأمة وسبيل رفعتها ومنعتها، وترك الجهاد والنكوص عنه طريق الهلكة والخسران في الدنيا والآخرة، وسبب المذلة والهوان، ومدعاة للبلاء والعذاب، ومضيعة للمصالح العامة لأمة الإسلام.

ضرورة فقه الجهاد:

ولما كان الجهاد بهذه المنزلة فإن السعي في ترشيده وتسديده ونصح أهله وضبط أحكامه وتقدير مصالحه، والفصل بين ثوابته التي لا يجوز التنازل عنها، وبين موارد

الاجتهاد التي لا مشاحة فيها- لهو أمر في غاية الأهمية والخطورة، وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك: النظر في واقع البلاد والعباد نصحًا للأمة واستثمارًا لجهود أبنائها وتحقيقًا للمصالح العامة، ودفعًا للشرور والمفاسد العامة.

وإذا أصبح الجهاد في سبيل الله- بصورته الشرعية المطلوبة- ليس في مقدور الأمة في وقت من الأوقات فإن الموقف الصحيح هو المضي في السعي للوصول إليه، وتحقيقه وتربية الأمة والناشئة عليه وتأصيله، لا إلغاؤه من قاموس الدعوة بالكلية، ولا إسقاطه من منهج الإصلاح بالجملة، فإن وقع تخلف عن القيام به فإنما يكون بقدر العجز عنه، مع ضرورة الأخذ بلوازم الوصول إليه، والإعداد له؛ لقول نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يَحْدِثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»^(١).

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «... كما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز؛ فإنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»^(٢).

إنه يبين أنه في حال العجز يجب الإعداد ولا يسقط الجهاد بحال أبدًا، بل إن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر- بل بشر- بأنه لا تزال طائفة بأمرته على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وفي رواية قال: «يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ»^(٣)، فهذه الرؤية لا تسقط أبدًا - بحمد الله تبارك وتعالى - في أمة الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما يحسن أن يستفاد من مراحل تشريع الجهاد التي مر بها المسلمون الأوائل ومن أحكام السياسة الشرعية التي يتحدد بناءً على رعايتها للمصلحة تفاوت الموقف

(١) أخرجه مسلم (١٩١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٨٥١)، وأبو داود (٢٤٨٤) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من المشركين هدنةً أو حرباً، فقد صالح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشاً عشراً، وآخر قتالهم وقاتل غيرهم حيث لا هدنة، وترك قتال آخرين بغير هدنة، ويضبط كل ذلك النظر لمصلحة المسلمين، وحسن التقدير لقدرتهم.

الحذر من العجلة، والاعتذار بالكثرة:

وأخيراً: فإن ما سبق لا يمنع من تأكيد الحذر من استعجال مواجهة، أو استجابة لاستفزاز، أو انطلاق من ردود أفعال قبل تهيئة مختلف الأسباب والقوى، وتحقيق الكفاية في العُدَّة، وعلى رأسها: استقامة الجند والقادة بحسب الطاقة، وتحقيقهم جميعاً بالإيمان، وثقتهم بنصر الله الرحمن؛ حتى يستحقوا تَنَزُّلَ النصر عليهم، مع الحذر من سوء التقدير لقوة العدو، أو الاغترار بكثرة العدد، ومراعاة أن النفوس يتغير ثباتها في حال المواجهة الفعلية والاضطرار، عما قد يظهر منها حال السعة والاختيار، فهذا من أكد ما تنبغي العناية به في هذا الشأن، وذلك حتى لا ترجع هذه المواجهات بنقيض ما شُرِعَ الجهاد لتحقيقه من إعزاز الدين وتقوية شوكة المسلمين.

وإذا كانت المعارك بين أولياء الله وأعدائه سجالاتاً عبر التاريخ - لحكمة بالغة دل عليها قول الله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] - فإن الجولة الختامية والدولة النهائية لحزب الله المؤمنين، ولجند الله الغالبين المفلحين، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧٣)، وقال - أيضاً - سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وعد الله بنصر المؤمنين:

هذا الوعد المنشود والنصر الموعود إنما يتنزل على أمة مؤمنة مجاهدة تربي

أطفالها على ما تربى عليه معاذ بن عمرو بن الجموح، وتربي شبابها على ما تربى عليه محمد بن القاسم الثقفي رَحِمَهُ اللهُ، وتربي نساؤها على ما تربت عليه الخنساء وربت عليه أبناءها، هي تربية إيمانية عبادية، فمن فرط في حي على الصلاة يوشك أن يخون حي على الجهاد، وهي تربية إيمانية سلوكية، فمن سقط أمام المعاصي وفي الموبقات، جدير أن يسقط أمام الأعداء وفي المواجهات، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فاللهم نصرك الذي وعدت لأمة الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في المشارق والمغارب.

اللهم نصرًا عزيزًا مؤزرًا لها في فلسطين وفي الشام وفي العراق وليبيا واليمن وفي سائر الأوطان يا قوي يا عزيز؛ إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير، والحمد لله رب العالمين.



الموعظة الخامسة عشرة

في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الروم: ٤٧].

الحمد لله ناصر المؤمنين، ومذل الكافرين، وصلى الله وسلم وبارك على من نصره الله بالحجة والبيان، كما نصره بالسيف والسنان، وعلى آله وأصحابه المؤيدين بنصره، وعلى سائر جنده وحزبه إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

فإن هذه الآية العظيمة، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأمثالها في القرآن تدور حول موضوع النصر وحقيقته في القرآن الكريم، وأن الله تعالى لا يتخلى عن أوليائه وأحبابه في الدنيا قبل الآخرة، وفيما يلي وقفات متتابعات حول انتصار المؤمنين في الدنيا على أعدائهم، وذلك بالتأمل في مجموع آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة للوصول إلى قناعات يقينية في هذه القضية المصيرية:

أولاً: نصر الله لأهل الإيمان حقيقة يقينية وعقيدة إيمانية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

فلا تشكك بعد هذه النصوص المحكمة، ولا تردّد بعد هذه القواعد الثابتة المتتابعة على تحقق النصر للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

ثانياً: للنصر على الأعداء صور متعددة تمثل بمجموعها حقيقة النصر والانتصار، فمنها:

١- الانتصار بالغلبة على الأعداء في القتال:

فصورة النصر الظاهرة، وهيئته المتبادرة، إنما هي بالظفر على الأعداء في الدنيا، ومغالبتهم والغلبة عليهم في مواطن الجهاد والنزال!

قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿فَإَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُوتٌ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴿١٣﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ ءَاتَتْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِيٍّ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ دُجَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ومن عجيب دلالات القرآن: أنه لم يُقتل نبي في جهاد قط؛ لأن المقتول ليس بغالب، والغلبة للمرسلين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ لِمَنَّا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿[الصافات: ١٧١-١٧٢].

والذي في القرآن: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

وقد نفى الله عن المنصور أن يكون مغلوبًا، فقال تعالى: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وأما ما ورد في القرآن: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] فالمقصود بأنه قتل في غير جهاد^(١).

فالظهور هنا على الكفار بالسيف والسنان والغلبة في هذه الجولة لأهل الإيمان، والانتصار لأهل الحق.

وقد ورد خبر الطائفة المنصورة في السنة مرارًا، ومن ذلك: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ»^(٢)، وفي رواية: «يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ»^(٣).

وهذا الانتصار المادي قد يتحقق وقد يتخلف، والحرب بين الفريقين سجل، ولحكمة بالغة.

(١) فتح القدير، للشوكاني (٣٨٦/١).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٨٥١)، وأبو داود (٢٤٨٤) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٢- الانتصار والغلبة بقوة الحجة والبيان:

هذا النوع من الانتصار لا يتخلف، فحجة الباطل داحضة، وحجة أهل الحق قاهرة، وبراھينهم دامغة، وهو نصر مكفول لأهل الإيمان على مر الزمان وفي كل المكان.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَآنَ يَنفَعَهُمْ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ﴾ [الصفات: ١٧٢] قال السُّدِّي: «بالحجج»^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصفات: ٩٨] قال ابن جرير: «فجعلنا قوم إبراهيم الأذلين حجة، وغلبنا إبراهيم عليهم بالحجة»^(٢).

ومنه: قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ [الأنعام: ٨٣]، والرفع هو الانتصار بالحجة والظهور بالبرهان.

وفي الحديث: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»^(٣).

وفي الحديث: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»^(٤).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١٤/٢٣).

(٢) تفسير ابن جرير (٧٥/٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالمقصود: أن ظهورهم بالحجة والبيان يكون في كل زمان ومكان، وأن ظهورهم بالسيف والسنان قد يتخلف في بعض الزمان، أو المكان.

٣- من حقيقة الانتصار: الثبات على الحق حتى الممات:

أعظم النصر في الدنيا: ثبات على الحق، ونطق بالصدق، وهذا فضل الله على عباده المؤمنين، وجنده المفلحين، ولقد تعرض أنبياء الله إلى هذا كثيرًا، فقد قال تعالى - عن إبراهيم عليه السلام -: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۖ ﴾ (١٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿ [الصافات: ٩٧-٩٨].

وقال تعالى - عن نبينا عليه الصلاة والسلام -: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال تعالى - عن النبي عليه الصلاة والسلام -: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال عنه - أيضًا -: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والصبر والثبات على الحق حقيقة الانتصار التي لا تفارقه، وقد قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

وقد بين الله حقيقة النصر في قصة أصحاب الأخدود، فقال: ﴿ قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۖ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ ۖ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۖ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۖ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٤-٨].

ولقد بين غلامُ الأخدود حقيقة النصر بالثبات وإيثار الاستشهاد على الحياة، لما دلَّ الملك على مقتله، فلم يؤثر البقاء على انتصار دعوته وتبليغ رسالته، فحين دله على طريقة قتله كان إنما دلَّ الدنيا على طريق الإيمان، وهدى الله به الخلق للدين الحق، «أَمَّا بَرِّ الْغُلَامِ»^(١).

فهذا انتصار الرسالات والدعوات بالاستعلاء على حظوظ الدنيا والشهوات، وبالصبر على مفارقة الملذات طلباً لأعلى الجنات!

٤- والانتصار بالشهادة انتصار:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقصة الرضيع الذي أنطقه الله في أثناء قصة أهل الأخدود تتويج لحقيقة الانتصار، بإيثار الشهادة على الحياة!

وفي حديث خباب إشارة إلى هذا المعنى الجليل، فعن خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو متوسد برده في ظل الكعبة - فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ، وَيَمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيُثَمِّنَنَّ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

وقد مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على آل ياسر وهم يعذبون، فما زاد على أن قال: «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ»^(١).

فإيثار الشهادة صبراً وثباتاً هو الانتصار المعنوي الذي يجلب النصر المادي.

ومثل هذا الثبات مأثور عن ماشطة بنت فرعون التي روي في شأنها حديث ابن عباس عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي بِرَائِحَةٍ طَيِّبَةٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ مَاشِطَةُ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ كَانَتْ تُمَشِّطُهَا، فَوَقَعَ الْمَشْطُ مِنْ يَدِهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَقَالَتْ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ فَقَالَتْ: رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ، قَالَتْ: أَقُولُ لَهُ؟ قَالَتْ: قُولِي، فَقَالَتْ، فَقَالَ لَهَا: أَلَيْكَ مِنْ رَبِّ غَيْرِي؟ قَالَتْ: رَبِّي وَرَبُّكَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: فَأَحْمِي لَهَا نُقْرَةً مِنْ نُحَاسٍ، وَقَالَتْ لَهُ: لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَتْ: حَاجَتِي أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ عِظَامِي وَبَيْنَ عِظَامِ وَلَدِي، قَالَ: ذَلِكَ لَكَ؛ لِمَا لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ، فَأَلْقَاهَا وَوَلَدَهَا فِي النُّقْرَةِ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَكَانَ لَهَا صَبِيٌّ فَقَالَ: يَا أُمَّتَاهُ فَاصْبِرِي؛ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ»^(٢).

ويؤثر هذا الإيثار للآخرة على الدنيا عن زوجة فرعون التي قُتلت صبراً، وذكرها الله في كتابه، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١].

وثبت في شأنها قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ، كَمَلِّ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٍ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النَّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»^(٣).

(١) أخرجه الحاكم (٥٦٤٦) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٣٣)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- الانتصار باجتماع الغلبة المادية والمعنوية وحصول الملك:

معاني الانتصار بالغلبة في معارك القتال، وفي معترك الحجة والبرهان، وفي ميدان الصبر والثبات قد تجتمع، فيكون من وراء ذلك: ملك الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ دُجَالُوتَ وَعَاتِكُهُ اللَّهُ الْمُلُوكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذا بعد طريق طويل من الابتلاء والتمحيص!

وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَعَاوَنَكُمْ وَأَيْدَكُمْ بِصُرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١-٢].

وقال ﷺ: ﴿وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٣] فأقام الله للنبي صلى الله عليه وسلم دولته، وأعز رايته، وما مات صلى الله عليه وسلم حتى دانت له جزيرة العرب ونفذ فيها أمره وحكمه صلى الله عليه وسلم.

٦- إهلاك الله للكافرين، وإنجاء الله للمؤمنين:

وقد تكرر هذا المعنى في قصص النبيين والمرسلين، فإذا عم الله القوم الكافرين المكذبين بعقوبة مهلكة فإن سنته جارية بإنجاء المؤمنين!

فأما نوح وقومه:

فقد قال الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ (١٠) فَفَنَحْنَا أَنْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٤].

وقال تعالى - عنهم -: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال سبحانه - عنهم -: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال - عنهم كذلك -: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

وأما هود وقومه:

فقد قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وهكذا تتعدد الأمثلة وتنوع في كتاب الله:

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وفي إهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين نصر من الله عظيم، ونعمة من الله تستوجب الحمد والشكر:

قال الله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَايِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ثالثاً: نصر المؤمنين وعد لا يتخلف متى تحققت شروطه، وانتفت موانعه:

أما أنه وعد لا يتخلف، وحق لا يتبدل، فقد قال الله تعالى عنه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: ٥].

وقد أكد الله هذا الوعد الحق بقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمْتِنِي سَيَّلْتُ مَلِكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا»^(٢).

وأما أن هذا الوعد مشروط بشروطه، ومقيّد بقيده فهذا ثابت في كتاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خباب بن الارت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وشروط النصر يجمعها جميعاً نصره الله تعالى، ومنها:

١- أن تُخلص عقيدة التوحيد والإيمان من كل شائبة شرك وكفر ونفاق وطغيان:

قال تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

٢- أن تقام العبادات على وجهها الذي يثمر البركات والخيرات:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

٣- أن تكون التوبة ديدن الفرد والمجتمع:

قال تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

٤- أن تحل رابطة الأخوة الإيمانية في القلوب محل كل رابطة أرضية، وتقدم إذا تعارضت مع غيرها:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي الحديث: «... وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- لزوم الصبر واليقين:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِءَايَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»^(١).

واليقين هو الذي جعل المسلمين يحاولون فتح القسطنطينية مرة بعد مرة! فمتذ منتصف القرن الهجري الأول والمسلمون يحاولون فتحها يقيناً منهم بوعده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتحها، ومات من مات من الصحابة عند أسوارها!

ومع تأخر النصر والفتح ثمانية قرون ونصف القرن ما ترزعزع اليقين بفتحها حتى فتحها الله عليهم!!

٦- السعي وفق سنن الله الجارية في النصر والتمكين:

وهي سنن تتحقق في عالم المجتمعات بتحقيق السنن الكونية في عالم الماديات؛ فلا بد من سعي إيجابي للتغيير والانتصار، وتخلُّ عن سلبيات وموانع وعوائق الانتصار.

عَهْدٌ عَلَى الْآيَامِ إِلَّا تُهْزَمُوا النَّصْرُ يَنْبُتُ حَيْثُ يَرْوِيهِ الدَّمُ

(١) قاعدة في الصبر (ص ٩٤).

رابعاً: الانتصار وفق سنن الله الجارية أولاً:

لله تعالى سنن اجتماعية في الخلق بموجبها يتحقق النصر، وهي لا تحول ولا تزول.
قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ويمكن أن نشير إلى جملة هذه السنن باختصار:

أولاً: سنة الأخذ بالأسباب:

وهي أسباب مادية ومعنوية تدخل في جملة التغيير الإيجابي، والسعي العملي،
والإعداد الشرعي الذي دلت عليه آيات القرآن الكريم.

فالتغيير الإيجابي يُستدل عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والسعي العملي يُستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ وَسِرَدُوكُمْ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

والإعداد البشري يُستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ
وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالإيمان بالله والعمل الصالح عنوان الأخذ بالأسباب، وفي الإيمان بالله تدخل
أسباب معنوية كثيرة، وفي العمل الصالح تدخل أسباب مادية كثيرة.

وفي جملة ذلك تدخل صناعة القادة والربانيين في الأمة، وجمع شتات أهل السنة
بالاتحاد والوحدة، وإدارة الصراع مع الباطل بشكل علمي منهجي مخطط، لا عشوائي
ولا ارتجالي، واتخاذ الأسباب المقدورة صناعياً وتقنياً لخدمة الأعداد الاقتصادية
والعسكري، وتهيئة الكفاية للأمة، في كل مجالات الحياة.

وليكن معلومًا أن أعداء الأمة والدين انتصروا في معركة التخطيط وإدارة الصراع قبل أن ينتصروا في معركةٍ على أرض الواقع.

وأن أعداء الأمة والدين انتصروا صناعيًا وتقنيًا قبل أن ينتصروا عسكريًا!

وأن أمتنا ما هُزمت لأنها مؤمنةٌ قائمةٌ بأمر الله، وإنما لأنها مفرطة في إقامة دين الله، كما أمر الله، وكما أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأن أمتنا ما غُلبت لأنها قرأت القرآن، أو البخاري، وإنما لأنها ما عملت بأوامر القرآن وما في البخاري من أوامر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأن تحصيل القوة مناط من مناطات النصر، وهي قوة الإيمان، وقوة العمل الصالح، وهما عماد القوة المادية والمعنوية على حد سواء!

وأن التوكل على الله لا ينافي أخذ الأسباب.

ثانياً: سنة التغيير:

إيمانياً يتحقق التغيير بأيدي المصلحين، والدعاة والمجددين والمجاهدين، وفي عالم الأسباب المادية لا بد من تغيير بأيدي المجتمع ورجاله حتى يتحقق النصر.

قال الله تعالى: ﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، ولا يعذبهم بأيدي غيركم، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

وبهذا عمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قاتلوا وجاهدوا، دعوا وأمروا ونهوا!

فلا مناص من أن ينتصر هذا الدين بجهد بنيهِ لا بجهد غيرهم، وبسعيهم لا بسعي غيرهم.

وما كان خلاف هذا فهو خروج عن الأصل واستثناء!

فإن كان التغيير سلبياً كانت النتائج سلبية وخيمة، والجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ثالثاً: سنة التدافع:

عند التغيير والإصلاح لا بد من حدوث مقاومة ومدافعة، بين الحق والباطل، ومصارعة بين الهدى والضلال؛ لأن الحق كما أن له رجالاً يحمونه ويذودون عنه، فللباطل أهله!

قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذه الآية واردة بعد سياق الصراع بين طالوت وجنوده وجالوت وجنوده!

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْلِيفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﷻ [هود: ١١٩] والتدافع أعم من القتال، فهو يشمل التدافع

العقدي، والفكري، والمعنوي قبل التدافع العملي، أو العسكري.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فالحق إنما ينتشر بعقول أبنائه وبسواعد رجاله الذين يجاهدون في الله حق جهاده!

رابعاً: سنة الابتلاء:

التدافع بين الحق والباطل والشر والخير سنة تعقبها سنة الابتلاء:

قال تعالى: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٢ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ٣ ﴿[العنكبوت: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

والابتلاء إذا واجه أهل الإسلام عرفوا أنه طريق لا جديد فيه، وهم- أيضاً- لا يواجهونه بجديد، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وما زادهم إلا صبراً و يقيناً!

وما زادهم إلا ثباتاً وديناً!

فإن استعجل أهل الإسلام، أو تحولوا عن الثبات إلى التنازل، وعن المدافعة

والمقاومة إلى المداهنة والعبث بالثواب والأصول فقد حقت عليهم سنة الاستبدال، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

خامساً: سنة التمكين:

فإذا عمل المؤمنون بتلك السنن الجارية في الخلق نصرهم الله بها، ولو طال الطريق، وحصل لهم التمكين، ولو بعد حين.

ولو احتاجوا للسنن الخارقة فإن الله يجريها كما أجزاها لأنبيائه وأوليائه من قبل، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

إن النصر قد يتأخر، ولكنه لا يتخلف، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿سَيَهَيِّجُ الْجَمْعَ وَيَكُونُ الدُّبُرُ﴾ [القمر: ٤٥].

فلا يأس ولا قنوط ولا استحسار، ولا ترك للدعاء.

قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ۖ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ بِرُؤُونِهِ بَعِيدٌ ۖ وَرَنَّهُ قَرِيبٌ﴾ [المعارج: ٦-٧].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّيِّئِ وَالرَّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمَكِينِ»^(١).

فالانتصار إذن والتمكين وعد الله للمؤمنين، ولا يتأتى إلا وفق سنن الله الجارية لا الخارقة، وباستفراغ الوسع وبذل الجهد واللبأ إلى الله بالدعاء، والتوكل على مسبب الأسباب يتحقق موعود رب الأرباب، فاللهم اجعلنا أهلاً لنزول نصرك، واسلك بنا سبيل جندك المنصورين، واجعلنا حزبك المفلحين، والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٢١٢٢٢) من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الموعظة السادسة عشرة

في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

الحمد لله رب العالمين، اصطفى من خلقه أشرف المؤمنين، واختصهم بصحبة نبيه الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، ونصبهم منارات للسائرين، ومصابيح هدى للمدلجين، فرضي الله عنهم، وأعلا في الآخرة مثواهم ومنزلهم، أما بعد:

فقد قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ - في المرادين بهذه الآية -: «هم أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

وفي بيان فضل علم الصحابة قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «... فعلموا ما أراد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامًّا وخاصًّا، وعزماً وإرشادًا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢١٤ / ١٩).

فوقنا في كل علم واجتهادٍ، وورع وعقل، وآراؤهم أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يُرضى، أو حكي لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه سُنَّةٌ إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول، ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم - لم يخالفه غيره - أخذنا بقوله»^(١).

وفي بيان أن أفضل علم وعمل ما اقتدي فيه بالصحابة: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا تجد إماماً في العلم والدين، كمالك والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ومثل الفضيل وأبي سليمان ومعروف الكرخي، وأمثالهم - إلا وهم مصرحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مقتدين بعلم الصحابة، وهم يرون الصحابة فوقهم في جميع أبواب الفضائل والمناقب»^(٢).

وقال - أيضاً -: «فكلُّ مَنْ له لسان صدق من مشهورٍ بعلم أو دين معترفٌ بأن خير هذه الأمة هم الصحابة»^(٣).

ثم إن التابعين وتابعيهم بإحسان قد حصل لهم من العلم بمراد الله ورسوله ما هو أقرب إلى منزلة الصحابة ممن هم دونهم؛ وذلك لملازمتهم لهم، واشتغالهم بالقرآن حفظاً وتفسيراً، وبالحديث رواية ودراية!

وقد أثنى الله تعالى على التابعين في كتابه الكريم بعد ثنائه على الصحابة الكرام، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي (١/ ٤٤٢)، ونسبه للشافعي في الرسالة العراقية القديمة.

(٢) شرح الأصفهانية، لابن تيمية (ص ١٨٠).

(٣) المصدر السابق (ص ١٨٠).

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[التوبة: ١٠٠]، فاشتملت الآية الكريمة على أبلغ الثناء من الله رب العالمين على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، حيث أخبر تعالى أنه رضي عنهم ورضوا عنه بما أكرمهم به من جنات النعيم، وذكر العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: أن الذين اتبعوا السابقين بإحسان يشاركونهم في الخير، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]^(١).

وجاء في السنة النبوية أحاديث كثيرة في فضل التابعين، منها: عن عمران بن الحصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ أُمَّتِي قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «والمراد بقرن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في هذا الحديث -: الصحابة، وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين، أو ثمانين، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحواً من خمسين»^(٣).

مفهوم السلف:

وفي مفهوم السلف وبيان حَدِّه قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) أضواء البيان، للشنقيطي (٢/ ١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٠).

(٣) فتح الباري (٥/ ٧).

وفي الصحيح: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي»^(١)، وفي رواية: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(٢).

وهذه الخيرية خيرية علم وإيمان وعمل، وقد حكى ابن تيمية الإجماع على خيرية القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَاتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وَزَرَاءَ نَبِيِّهِ يَقَاتِلُونَ عَنْ دِينِهِ»^(٣).

وقد اعتبر بعض أهل العلم - كابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ - أن القرون الثلاثة المفضلة تنتهي عند عام ٢٢٠ هـ، هذا من الناحية الزمانية، أما من الناحية الموضوعية فيلتحق بهم كل من كان على طريقتهم من الاتباع بترك الابتداع، وإقامة الدين على فهم أصحاب النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَذْهَبُنَا وَاخْتِيَارُنَا: اتِّبَاعُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالتَّمَسُّكُ بِمَذْهَبِ أَهْلِ الْأَثَرِ مِثْلَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ»^(٤).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّمَا يَسْلُكُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ: مَالِكٌ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَالثَّوْرِيُّ، وَاللِّثْبِيُّ بْنُ سَعْدٍ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقُ»^(٥).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٠٠).

(٤) شرح أصول الاعتقاد، للالكائي (١/ ١٨٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢١).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «قف مع نصوص القرآن والسنة، ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات وما حكوه من مذهب السلف، فإذا أن تنطق بعلم، وإما أن تسكت بعلم»^(١).

تفاوت أقدار السلف:

وأعظم السلف - علماً وعملاً وفهماً وحالاً -: أبو بكر وعمر اللذان زكاهما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «اقتدوا بالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ»^(٢).

وعن عروة بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أنه أتى ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فقال: يا ابن عباس: طالما أضللت الناس، قال: وما ذاك يا عروة؟ قال: الرجل يخرج محرماً بحج، أو عمرة، فإذا طاف زعمت أنه قد حلَّ، فقد كان أبو بكر وعمر ينهيان عن ذلك، فقال: أهما ويحك أثر عندك، أم ما في كتاب الله وما سنَّ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه وفي أمته؟! فقال عروة: هما كانا أعلم بكتاب الله وما سنَّ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مني ومنك! قال ابن أبي مليكة: فخصمه عروة»^(٣).

ثم قول الأربعة الخلفاء حجة؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»^(٤).

فإذا قال الصحابي قولاً مما للرأي فيه مجال فينظر:

فإن كان قد انتشر في الصحابة ولم يظهر له مخالف، ولم يُعرف نصُّ يعارضه فهو حجة عند الأكثر.

(١) العلو للعلي الغفار (ص ١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٢٤٥)، والترمذي (٣٦٦٣)، وابن ماجه (٩٧) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢١).

(٤) أخرجه أحمد (١٧١٤٤) وأبو داود (٤٦٠٧) من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وإن لم ينتشر، فقيل: حجة على التابعي ومن بعده؛ لأن الصحابي حضر التنزيل فعرف التأويل لمشاهدته القرائن والأحوال.

وقيل: ليس بحجة على المجتهد التابعي ومن بعده؛ لأن كليهما مجتهد يجوز في حقه أن يخطئ وأن يصيب^(١).

والأول أرجح، وقد ذكر ابن تيمية أن الجمهور يحتاجون به^(٢).

قال الإمام أحمد: «ما أجبتُ في مسألة إلا بحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وجدتُ في ذلك السبيلَ إليه، أو عن الصحابة، أو عن التابعين، فإذا وجدت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم أعدل إلى غيره، فإذا لم أجد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعن الخلفاء الأربعة الراشدين المهيدين، فإذا لم أجد عن الخلفاء فعن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأكابر، فإذا لم أجد فعن التابعين، وعن تابعي التابعين، وما بلغني عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث بعمل له ثواب إلا عملت به؛ رجاء ذلك الثواب، ولو مرة واحدة»^(٣).

وانتصر ابن القيم لهذا المنهج، فقال: «لا يسع المفتي والحاكم عن الله أن يفتي ويحكم بقول فلان وفلان من المتأخرين من مقلدي الأئمة، يأخذ برأيه وترجيحه، ويترك الفتوى والحكم بقول البخاري وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني، بل يرى تقديم قول المتأخرين من أتباع من قلده على فتوى أبي بكر الصديق، وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود، فلا يُدرى ما عذره غداً عند الله إذا سوى بين أقوال أولئك

(١) الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، لأبي زرعة العراقي (ص ٦٥١).

(٢) المسودة (ص ٣٣٦-٣٣٨، ٤٧٠).

(٣) المستدرك على مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢/ ١٢٦).

وفتاويهم، فكيف إذا رجّحها عليها؟ فكيف إذا عيّن الأخذ بها حكماً وإفتاءً، ومنع الأخذ بأقوال الصحابة؟!^(١).

فكيف إذا انتقصهم؟!

قال أحمد: «إذا رأيت الرجل يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام»^(٢). وللرافضة موقف خبيث من الصحابة معروف! ومسلك وبيل في الطعن على ساداتهم؛ وذلك للتوصل إلى الطعن في الرسالة وصاحبها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وللخوارج والمعتزلة موقف سيئ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال عمرو بن عبيد المعتزلي: «لو شهد عندي عليّ، وطلحة، والزبير، وعثمان على شراك نعل ما أجزتُ شهادتهم!»^(٣).

وصدق أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «علامة أهل البدع: الوقعة في أهل الأثر»^(٤).

وصدق أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلم أنه زنديق»^(٥).

فاللهم إنا نبرأ إليك من كل متقولٍ مفتّرٍ على أصحاب نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونشهدك على بغضهم وحرهم، ونسألك أن ترد كيدهم في نحورهم، وأن تُعلي في الأمة

(١) أعلام الموقعين (٤/ ١٥٢).

(٢) الصارم المسلول (٣/ ١٠٥٨).

(٣) الاعتصام، للشاطبي (١/ ١١٩).

(٤) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣٢١).

(٥) الكفاية، للخطيب (ص ٩٧).

ذكر أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم، وأن تقطع دابر شائئهم ومنتقصهم!

ونسألك أن تجمعنا بهم - بحبنا إياهم - في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك
مقتدر!

والحمد لله رب العالمين.



الموضع المصابقة عشرة

في قوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[النحل: ٤٣].

الحمد لله شَرَّفَ العلم وأَعْلَا قدر العلماء، وصلى الله وسلم وبارك على من قال:
«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١)، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد جاء الأمر بسؤال أهل الذكر في موضعين من كتاب الله تعالى في سورتي:
النحل، والأنبياء.

الموضع الأول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤٣) بِالْيَنِّنَةِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ ﴿[النحل: ٤٣-٤٤].

والموضع الآخر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والآيتان كما ترشدان الكفار والمعادنين إلى سؤال من سبقهم من أهل الكتاب ممن لديهم علم ليس عند غيرهم من المشركين، فهي - أيضًا - موجّهة لأهل الإسلام ممن جهلوا حكمًا، أو أمرًا شرعيًا فاحتاجوا إلى معرفته بسؤال العلماء والفقهاء.

والذكر المراد به: العلم؛ لأنه مقرون بالذكر ومتعلّق به؛ إذ العالم من يذكر الدليل ولا يكون ساهيًا عنه، فحسُن أن يقع الذكر موقع العلم.

وسبب نزول هذه الآية: أن مشركي مكة أنكروا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون الله تعالى أرسل بشرًا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧].

وأهل الذكر - هنا - هم: أهل الكتاب من الأمم السابقة الذين بعث الله إليهم الرسل، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر في أصول الفقه، ولهذا فأهل الذكر عام في كل من يعزى إليه علم.

فأهل الذكر هم أهل الاختصاص في كل فن، وعلى هذا فالواجب على من لم يعلم أن يسأل من يعلم، كما أمر الله تعالى.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المراد بقول الله ﷻ: ﴿ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧]، ولم يختلفوا أن العامة لا يجوز لها الفتيا؛ لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم»^(١).

ولنا مع الآية الكريمة وقفات:

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٢).

الوقففة الأولى: وجوب السؤال والاستفتاء على من جهل أمراً من دينه:

قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»^(١).

وعلى هذا أجمع أهل العلم أنه لا يجوز لمسلم أن يعمل في دينه بجهل، وإنما يجب أن يعمل فيه بعلم.

الوقففة الثانية: للإفتاء والإجابة على السائلين منزلة عظيمة في دين الله تعالى:

فالفيتا أمر تولاه الله بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]، ثم قام به الأنبياء من بعد كما قال تعالى: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾، ثم قام به علماء كل ملة ودين ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي الحديث: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢).

وقد توجه المؤمنون بأسئلتهم إلى نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلمائهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمن بعدهم.

وفي القرآن الكريم خبر أسئلة المؤمنين في ثلاثة عشر موضعاً، منها:

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ط﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقوله جل وعلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

(١) أخرجه أحمد (٣٠٥٦)، وأبو داود (٥٧٢)، وابن ماجه (٥٧٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) سبق تخريجه.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وفي السنة أضعاف أضعاف ذلك، وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم إفتاء الصحابة بنفسه:

فمن أسئلة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في العقيدة:

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى، فقال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا»^(١).

وسئل عن مسألة القدر وما يعمل الناس فيه: «فَعَن سُرَاقَةَ بَنٍ مَالِكٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِيمَ الْعَمَلُ؟ أَفِي شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ أَوْ فِي شَيْءٍ نَسْتَأْنِفُهُ؟ فَقَالَ: بَلْ فِي شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلِ إِذَا؟ قَالَ: اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُسِيرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٢).

وسئل: أين يكون الناس يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض؟! فقال: «عَلَى الصِّرَاطِ»^(٣).

ومن أسألهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الفقه:

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوضوء بماء البحر، فقال: «هُوَ الطَّهْرُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٥٨) من حديث سراقه بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٩١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه أحمد (٧٢٣٣)، وأبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسئل عن الصلاة في الثوب الواحد، فقال: «أَوْ كُلُّكُمْ يَجِدُ ثَوْبَيْنِ؟!»^(١).

وقد علق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على مثل هذه الفتاوى، فقال: «فلله ما أجل هذه الفتاوى، وما أحلاها، وما أنفعها، وما أجمعها لكل خير!»^(٢).

وبالجملة فأهل الإفتاء الصالحون هم صفوة الورى ومصايح الدجى، فهم أكابر علماء هذا الدين بلا منازع، و«الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»^(٣).

قال الأول:

إِنَّ الْأَكَابِرَ يَحْكُمُونَ عَلَى الْوَرَى وَعَلَى الْأَكَابِرِ تَحْكُمُ الْعُلَمَاءُ

قال ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أرفع الناس منزلةً من كان بين الله وبين عبادته، وهم العلماء»^(٤).

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن لم يكن الفقهاء أولياء الله في الآخرة فما لله ولي»^(٥).

الوقفـة الثالثة: من هو الذي يُسأل؟

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرَّمَر: ٩].

فُيُسأل العالم الشرعي في الشأن الشرعي:

ومَن كانت صفته العلم بالكتاب والسنة وما استفيد منهما من علوم ومعارف فهو العالم الشرعي.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥)، ومسلم (٥١٥) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أعلام الموقعين (٤/٣٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (١/١٤٨).

(٥) المصدر السابق (١/١٥٠).

فإن تخصص في العلم بالأحكام الشرعية العملية المستفادة من أدلتها التفصيلية فهو الفقيه، وكل من عرف جملة غالبية من الأحكام الشرعية والفروع الفقهية وتمهر بالفقه حتى صار له سجية فهو فقيه.

ويُعرف الفقيه باستفاضة العلم به بين الناس، وبنشر علومه، وثناء الكبار من العلماء عليه، وبتصديده للمشاركة في التأليف والتصنيف، والإفتاء والاجتهاد، وحضور المجامع العلمية والفقهية، والمشاركة في دور الفتيا، والروابط العلمية، ونحوها.

هذا هو من يُسأل بشرط استقامة عقيدته، وسلامة منهجه، وعمله بالعلم، وظهور الخشية بآثارها على مسلكه، وتجافيه عن الدنيا وأهواء السلاطين.

وفي الحديث «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُوهُ»^(١) وهم أوفر الناس حظاً من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

والمفتي هو: من يخبر بأمر شرعي.

والقاضي هو: من يلزم بالأمر والحكم الشرعي في الخصومات.

والأصل في المفتي: أن يكون مجتهداً، فإن لم يتيسر اعتُبر الأمثل فالأمثل، والأعلم فالأعلم.

وعلى المستفتي أن يتخير الأعلم والأورع من بين المفتين إذا تعددوا.

روى ابن عبد البر رحمه الله: «أن رجلاً دخل على ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك رحمه الله فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك؟ أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٥٩٩)، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمرٌ عظيم، قال ربعة: وَلَبَعْضُ من يفتي هنا أَحَقُّ بالسجن من السُّرَّاق!«^(١).

وذلك كان في القرن الثاني الهجري، فماذا لو عاش بيننا اليوم؟!

الوقفـة الرابعة: الاجتهاد لا يجب على كل أحد:

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

والأمر بسؤال أهل العلم يدل على وجود غيرهم ممن لا ينتسب إلى العلم والاجتهاد، وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي الحديث: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدْ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ...»^(٢)، فأضاف إليه الاجتهاد.

والمُفتون من الصحابة لم يبلغوا مائة وأربعين نفساً ما بين رجلٍ وامرأة، وهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعشرات الألوف عند وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ويجب في المفتي: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والعدالة، وفقه النفس.

- ويلزم له: علم بالكتاب العزيز وآيات الأحكام، والمحكم والمتشابه، والخاص والعام، والناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبين.

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- كما يلزم له: أن يعلم السنة ويميز بين صحيح أحاديث الأحكام وضعيفها ومقبولها ومردودها.

- ويلزم له - أيضًا - معرفته بالعربية وأساليبها، وتراكيبها ودلالاتها.

- وعلم بأصول الفقه والاستنباط، ومناهج استخراج الأحكام من النصوص الشرعية، ومصادر التشريع المتفق عليها، والمختلف فيها.

- ومعرفة بالإجماع ومسائله، وبالاخلاف ومواطنه.

الوقفَةُ الخامسة: واجب المستفتي:

كل من جهل أمرًا من دينه قد وجب عليه معرفته فقد وجب السؤال عنه إذا لم يكن من أهل العلم والاجتهاد القادرين على استنباط حكمه.

فمتى نزلت بالمستفتي نازلة في دينه فعليه أن يذهب، أو يتصل بالمفتي في بلده، أو مكانه، فإن فقدته، أو بعدت داره فقد وجب عليه المجيء إليه.

وقد رحل غير واحد من السلف في مسألة علمية واحدة^(١).

فيجب على المستفتي إذا أراد السؤال:

- أن يتخير الأغزر علمًا، والأكثر ديانة؛ إذ ليس كل من انتسب إلى العلم كان من أهله المتقين، وأوليائه الصادقين.

وقد نُقل الاتفاق على جواز استفتاء مَنْ عُرِفَ من أهل العلم بالاجتهاد والعدالة، أو انتصب للناس وهم يسألونه معظّمين له.

(١) الفقيه والمتفقه، للخطيب (٢/ ٣٧٥).

- وعليه أن ينتهي عن تكلف المسائل والسؤال عما لا يعنيه منها.
- وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لعكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «انطلق فأفِتِ الناس وأنا عون لك، فمن جاءك يسأل عما يعنيه فأفْتِهِ، ومن سألَكَ عما لا يعنيه فلا تُفْتِهِ»^(١).
- وليس للعامي مذهبٌ، ولا يلزمه أن ينتسب إلى مذهبٍ، ومذهبه مذهب من أفتاه.
- ولا يجوز للسائل ترك العمل بالفتيا إذا خرجت من أهلها ولم تُخالف.
- علَّمنا الله ما ينفعنا، ونفعنا بما علَّمنا، وزادنا علماً وعملاً، وأعادنا من فتنة القول والعمل، وآتى نفوسنا تقواها، وزكاها هو خير من زكاها، إنه هو وليُّها ومولاها، والحمد لله رب العالمين.



(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٣/٣٢٧).

الموعظة الثامنة عشرة

في قول الله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ولا ند له، ولا كفؤ له، تفرّد بالعظمة والكبرياء، واختص بالعزة والبقاء؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليفه، خير من جاهد في سبيل الله، وأعلى في الأرض كلمة «لا إله إلا الله»، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً؛ أما بعد:

فقد أمر الله تعالى عباده الموحدين بتكبيره وتمجيده، وجعل التكبير شعارهم في الحزن والفرح، والعبادة والجهاد، والرغبة والرغبة، وكل ذلك لحكم جليلة نلتبس بعضها في هذه الكلمات.

تكبير الله تعالى نصرته على الأعداء:

ففي وقتٍ تغلّبت فيه جحافل الأعداء على ربوع إسلامية كثيرة، وتمكنت كتائب الغوغاء من رقابٍ موحدة عديدة، وتغالبنا في الداخل الإسلامي - أيضًا - قوَى شريرة، تسعى للترؤس على الخلق، وإقصاء الصالحين، وتقديم العملاء والفاستقين، وإشعال نار الفتنة في بلاد المسلمين.

ليس لنا - وقد تعاضمنا ذلك المكر الكبار - إلا أن نشق في الكبير المتعال، والعظيم ذي الجلال، الذي أمرنا بتكبيره وتعظيمه، فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وليس لنا - وقد هالنا اجتماع الأشرار، وأحاط بنا كيد الفجار - إلا أن نكبر العلي الكبير، وأن نلوذ باللطيف الخبير، الذي «أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل مخلوق عزة وحكمًا»^(١)، فهو سبحانه الذي أحاط بمكر الماكرين، وتأمّر المتأمرين: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ليس لنا إلا أن نشق في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

(١) لمعة الاعتقاد، لابن قدامة المقدسي (ص ٥).

ليس لنا لا أن نكبر الله تعالى - بالأفئدة والألسنة - لنطفى نار الفتنة المستعرة، ونواجه البلاء بالحمد الذي يملؤ القلب بيقين كالبرد، ويجد العبد طعمه أحلى من الشهد.

تكبير الله تعالى أساس العبادات ومقدمتها:

أكثر الأذكار ترديداً على اللسان تكبير ربنا الرحمن، فهو في الأذان يملؤ الأذان، وكل يوم وليلة يرفع على المنائر والمنابر، ويتردد في القلوب والأفئدة كما يتردد على الأذان والألسنة؛ وما ذلك إلا لحكمة جليلة؛ وهي إقامة تعظيم الرب في القلب، وانصرافه عن كل الشواغل والصوارف إلى عبادة ربه الكبير.

والتكبير في الشرع تمهيد للعبادات الجليلة، فالتكبير في الأذان يأتي قبل التوحيد؛ وذلك ليقوم بتعظيم الرب في القلب مقام التمهيد لكلمة التوحيد، وهو قبل الدخول في أعمال الصلاة بمثابة الباب الذي يدخل منه العبد الذليل الضعيف الحقير على الرب الجليل القوي الكبير، وفي الحديث عن الصلاة: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الْوُضُوءُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ»^(١).

والتكبير كذلك مقدمة للصيام، فقد كان من هدي نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى الهلال أن يقول: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهْلَهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى، رَبُّنَا وَرَبُّكَ اللَّهُ»^(٢)، وكذلك التكبير مقدمة ظاهرة، بل

(١) أخرجه أحمد (١٠٧٢)، والترمذي (٣) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الدارمي (١٧٢٩)، وابن حبان (٨٨٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

شعيرة من شعائر الحج لبيت الله الحرام، فما يهله هلال ذي الحجة حتى يشرع المسلمون في الجهر بتكبير الله وتعظيمه في الأسواق والطرقات، حتى إذا غربت شمس يوم عرفة شرع المسلمون في مشارق لأرض ومغارها في التكبير أدبار الصلوات، يكبرون حتى يبلغ تكبيرهم عنان السماء.

والتكبير مطلوب التكرير في الأذان والصلاة في البدء والختام، وعند الانتقال من ركن إلى ركن في الصلاة، وفي أيام الحج ومواسم الخير والبر؛ وذلك ليبقى القلب مستحضراً عظمة الرب، ومتحققاً بمعاني الحب، فهي كلمات تذكّر العبد بما لله تعالى من عظيم الجلال والكبرياء، وتمكّن في قلبه المحبة لله تعالى، وتهيبه لرتبة الأولياء والأصفياء.

ذلك أن عبادة الله تعالى إنما تُبنى على محبة الله وتعظيمه، فهما قُطبَا عبادات القلوب، والأساس المتين الذي تقوم عليه سائر العبادات، فبمحبة الله تكون الرغبة والرجاء، وبتعظيمه ﷻ يكون تعبد الله تعالى بالخوف والخشية والهيبة وغيرها.

تكبير الله تعالى تعبد له بأسمائه وصفاته:

والتكبير تعبدٌ وعبودية لله تعالى باسمه: الكبير، وقد أمرنا الله تعالى بأن نتعرف إليه بأسمائه الحسنی، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وأن نؤمن بصفاته العلى، وقد جاء اسم الله الكبير في القرآن ست مرات، كلها تنطق بتعظيم الكبير سبحانه:

١ - فذكر اسم الله الكبير في مقام إثبات ألوهيته تعالى، وإبطال ألوهية ما سواه؛

فهو المعبود الحق، وما سواه فمعبود باطل، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَتَى اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فهو **عَلِيٌّ** كبير في علوه، **عَلِيٌّ** في كبريائه.

٢- وذكر اسم الله الكبير في مقام تنزيه الله تعالى عن كل نقص نسبه المشركون لربهم، أو كل حق لله صرفوه لآلهتهم الباطلة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

٣- وذكر اسم الله الكبير كذلك في مقام تنزيه شريعة الله تعالى وكلامه ووحيه؛ من أن يتطرق إليها خلل أو باطل، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

٤ - والكبير سبحانه هو الذي ينتزع حق الضعيف من القوي، والمظلوم من الظالم، فلازم الإيمان باسم الله الكبير ألا يبغي المؤمن على أحد - ولو كان ضعيفاً - ولا يظلم أحداً - وإن كان صغيراً - قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

٥ - وكما أن الذات كبيرة؛ فإن الصفات والأفعال كبيرة، فعلم الله كبير محيط، وحكمه وتقديره كبير، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ **عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** [الرعد: ٨ - ٩].

فتكبير الله تعالى وتعظيمه دليل مرشد إلى الكمال المطلق لصفات الله وأفعاله، فهو الذي حاز الكمال المطلق الذي لا يتطرق إليه نقص بوجه من الوجوه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ^(١):

لَكِنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْأَكْوَانِ	اللَّهُ أَكْبَرُ مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى
بِهِ تَعَرَّجُ الْأَمْلاكُ كُلُّ أَوَانٍ	وَاللَّهُ أَكْبَرُ ذُو الْمَعَارِجِ مَنْ إِلَيْنِ
أَمْلاكَهُ مِنْ فَوْقَهُمْ بَيَانٍ	وَاللَّهُ أَكْبَرُ مَنْ يَخَافُ جَلَالَهُ
أَطُّ بِهِ كَالرَّحْلِ لِلرَّكْبَانِ	وَاللَّهُ أَكْبَرُ مَنْ غَدَا لِسِرِيرِهِ
مِثْلُ وَعَنْ تَعْطِيلِ ذِي كَفَرَانِ	وَاللَّهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ وَعَنْ
أَوْصَافٍ كَامِلَةٍ بِلَا نُقْصَانِ	وَاللَّهُ أَكْبَرُ مَنْ لَهُ الْأَسْمَاءُ وَالْ
حَبَّةٍ وَعَنْ كَفٍّ وَعَنْ أَخْدَانِ	وَاللَّهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ وَلَدٍ وَصَا

تكبير الله تعالى وقاية للعبد من الكبر والغرور:

تكبير الله تعالى يعلم عباده العزة والاعتزاز بالإسلام، ثم هو مع ذلك يقيهم من مخاطر الكبر والعجب والغرور؛ حتى يكونوا كما وصف الله تعالى عباده الذين يحبهم ويحبونه، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

والكبر من أعظم أمراض القلوب خطراً وضرراً، قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ تعالى: «وأما الكبر فإنه الخصلة المهلكة رأساً، أما تسمع قوله تعالى:

(١) نونية ابن القيم (ص ٢٩٤ - ٢٩٥).

﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وليست هذه الخصلة بمنزلة سائر الخصال التي تقدح في عمل، وتضر بفرع؛ وإنما تضر بالأصل، وتقدح في الدين والاعتقاد، وإذا قويت وغلبت فلا تُتدارك - والعياذ بالله! ^(١).

ومخاطر الكبر وعواقبه وعقوباته كثيرة؛ أهمها وأخطرها:

١ - حرمان المتكبر من الهداية، وصرفه عن الانتفاع بآيات الله وأحكامه، قال تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

٢ - وإذا حُرِمَ المتكبر الهداية؛ فقد حُرِمَ جنة الله ورضوانه، فأعظم خسارة للمتكبر الخلود في نار الله وعذابها الأليم، قال تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

٣ - والتكبر سببٌ لمقت الله وغضبه وسخطه على المتكبر، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وفي الحديث القدسي، الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا؛ قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» ^(٢).

أما التواضع فهو توجيه الله تعالى وأمره لسيد الأولين والآخرين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) منهاج العابدين، للغزالي (ص ١٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٥٩)، وأبو داود (٤٠٩٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقد تمثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية الكريمة، فكان أشد الناس تواضعاً، فعن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل، فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: هَوْنٌ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»^(١)، وتواضع المؤمن لله وللمؤمنين سببٌ لرفعته في الدنيا والآخرة، ففي الحديث: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٢).

فاللهم ارزقنا تكبيرك وتعظيمك، واجعلنا ممن يَقْدُرُكَ حَقَّ قَدْرِكَ، ويوقِّرُكَ حق توقيرك، ونجِّنَا اللهم بالتكبير من مكر الكافرين، واجعلنا اللهم بالتكبير من المنصورين، واجعلنا به من الخاشعين لك والخاضعين، وتقبل منا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.



(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم (٤٣٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الموعظة التاسعة عشرة

في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

الحمد لله رب العالمين، أسعد قلوب المؤمنين بمعرفته وتوحيده، وشرح صدور المتقين بتعظيمه وتأليه، وصلى الله وسلم وبارك على أسعد خلق الله، وصفوة رسل الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وفي هذه الآية أمر بالفرح بفضل الله وبرحمته، وهو أمر بالفرح بالإسلام، أو بالقرآن الذي سبق الحديث عنه في الآية التي تسبقها: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقد اختلف في تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، فقال صاحب فتح القدير: «المراد بالفضل من الله سبحانه هو تفضله على

عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر، والرحمة: رحمته لهم، وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام. وروي عن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ: الإيمان، ورحمته: القرآن.

والأولى: حمل الفضل والرحمة على العموم، ويدخل في ذلك: القرآن وما اشتمل عليه دخولاً أولياً^(١).

والفرح يشرح الصدر، ويسرُّ القلب، ويلذُّ له!

ولنا مع الآية الكريمة وقفات:

الوقفَةُ الأولى: حكم الفرح في الدنيا:

في القرآن نهي عن الفرح الذي يورث أشراً وبطراً، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

والفرح في القرآن على نوعين: مطلق، ومقيد.

فالمطلق ورد مورد الدم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقيد نوعان:

الأول: مقيدٌ بالدنيا، وهو الذي يُنسي صاحبه فضل الله ومنتته! فهو مذموم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

الثاني: مقيدٌ بفضل الله ورحمته، وهو نوعان:

أ- فرح بالسبب: وهو الفضل والرحمة، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

(١) فتح القدير، للشوكاني (٥١٦/٢).

ب- فرح بالمسبب: وهو الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والحاصل: أن أهل الإيمان يفرحون بطاعة الرحمن، وما كان سبباً في طاعة الرحمن من الإيمان والقرآن، والنبي العدنان صلى الله عليه وسلم.

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذُبِينَ بِكَ، وَبِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ﴾ بِفَضْلِ اللَّهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، الَّذِي تَفْضُلُ بِهِ عَلَيْكُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَبَيْنَهُ لَكُمْ، وَدَعَاكُمْ إِلَيْهِ ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾، الَّتِي رَحِمَكُمْ بِهَا، فَأَنْزَلَهَا إِلَيْكُمْ، فَعَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ مِنْ كِتَابِهِ، وَبَصَّرَكُمْ بِهَا مَعَالِمَ دِينِكُمْ، وَذَلِكَ الْقُرْآنُ ﴿فَإِذْ ذَٰلِكَ فَانْفَرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يَقُولُ: فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَالْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ، خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَأَمْوَالِهَا وَكُنُوزِهَا»^(١).

ففرح المؤمنين في هذه الحياة مرتبط بطاعة الله، مثل:

١- الصيام:

ففي الصيام: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»^(٢).

٢- الهداية إلى الإسلام:

جاء أبو هريرة رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم سائلاً إياه الدعاء بالهداية لأمه، فدعا

(١) تفسير ابن جرير (١٢/ ١٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لها، وذهب إليها أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوجدها تغتسل وخرجت إليه وهي تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فأتيته وأنا أبكي من الفرح! قال: قلت: يا رسول الله، أبشر قد استجاب الله دعوتك، وهذه أم أبي هريرة»^(١).

وقد تهلل وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرحاً بدخول أعداد من المسلمين في الإسلام.

٣. التوفيق للتوبة:

ولما أنزل الله تعالى قرآناً بتوبته على الثلاثة الذين خُلِفُوا فرح بذلك الصحابة، وفرح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتهلل وجهه واستنار من السرور^(٢).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفرح إذا جاء عن أهل الكتاب ما يصدق كلامه، والمؤمنون من أهل الكتاب يفرحون بما أنزل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ أَكْتُبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

ولما بشر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمير بن الحمام بالجنة فرح، فقاتل حتى قتل شهيداً يوم بدر^(٣).

ولما اغتال بعض المشركين حرام بن ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برمح، أو حربة من ظهره فخرجت من بطنه، وتفجر الدم من بطنه واستقبله على يديه، مسح بهما وجهه قائلاً: «فزت ورب الكعبة!!»^(٤).

وفرَّح المؤمن بالطاعة والصالحات والحسنات علامة إيمان وصلاح وصحة،

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٤٦)، ومسلم (١٨٩٩) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٠١)، ومسلم (٦٧٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»^(١).

وسِرُّ الفرح بالعبادة والطاعة أنها محبوبة مرغوبة؛ لما يترتب عليها من الآثار الصالحة في عاجل شأن المؤمن وآجله، ولما لها من الأثر الطيب على القلب والقالب. وكما يفرح المؤمن بطاعة ربه، يفرح الرب بطاعة عبده، فله ما أعظم تلك الفرحه! وقد ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الفرح مثلاً ليس في أفراح الدنيا ما هو أعظم منه، وهو فرح من أضلَّ راحلته في فلاة موحشة مقفرة، وعليها طعامه وشرابه، فطلبها فأيس منها، فجلس ينتظر الموت تحت شجرة، فلما أفاق وجدها عند رأسه عليها طعامه وشرابه، فاشتد فرحه حتى قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ - أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ!»^(٢).

وفرَّح الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بتسمية الله لهم في المناقب العظيمة، فعندما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ سورة البينة، قال: وسماني؟! قال: نَعَمْ، فبكى أُمِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^(٣)؛ فرحاً بهذه النعمة العظيمة أن سماه الله تعالى لنبيه، وأمره أن يقرأ عليه هذه السورة.

كما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرح لما أصاب أُمِّي الْحَقَّ في جواب سؤال: ما أفضل آية من القرآن، لما أجابه: آية الكرسي، فقال: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْدَرِ»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (١١٤)، والترمذي (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٨١٠) من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك فرح المسلمون بإسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١)؛ لما فيه من عز الإسلام وأهله!
وقد ورد «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا فَتَحَ الْيَمَامَةَ سَجَدَ»^(٢)، وسجد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما وجد ذا الثُدَيَّةِ مقتولاً في الخوارج^(٣).
وفرَّح المسلمون بموت الظَّلمة والطُّغاة، قال حمَّاد رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَشَّرْتُ إِبْرَاهِيمَ بِمَوْتِ الْحِجَّاجِ فَسَجَدَ، وَرَأَيْتُهُ يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ»^(٤).
وفرَّح طاوس رَحِمَهُ اللَّهُ لنفس الخبر، وتلا قول الله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).
فاللهم اشرح قلوبنا بطاعتك، وأسعد نفوسنا بمرضاتك، وارزقنا الفرح بنصرة دينك وعبادك الموحدين في مشارق الأرض ومغاربها، وكبت أعداء الدين، يا قوي يا متين.
والحمد لله رب العالمين.



-
- (١) البداية والنهاية، لابن كثير (٣/ ١٠١).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في المصنف (٨٤١٣).
(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤٩٣١).
(٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٦/ ٢٨٠).
(٥) البداية والنهاية، لابن كثير (٩/ ٢٥٦).

الموعظ المشرون

في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾

[العلق: ١٩].

الحمد لله قَرَّب عبده بالسجود، وجعل فيه طاعة الرب المعبود، وعزَّ العبد المربوب، وصلى الله وسلم وبارك على خير من صلى الله وسجد، وسعى له تعالى وحفد، وعلى آله وأصحابه المقربين وجنده المفلحين، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

ففي قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] بيان لسر الصراع في هذه الحياة بين الإنسان والشیطان، سواء أكان الشيطان إنسيًّا أم جنیًّا!

فالشیطان أبی السجود فأخرج من جنة الرب المعبود، وامتنع كبراً فهو ينشق غيظاً إذا رأى ابن آدم يسجد لله، ويقول: «يَا وَيْلَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ: يَا وَيْلِي - أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»^(١).

فدأبُ الشيطان النهي عن السجود للرحمن!

(١) أخرجه مسلم (٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وفي مقابل نهى الشيطان عن السجود يأتي أمر الملائكة بالسجود، فهي لمة الخير في مقابل لمة الشر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ۝٤٢ يَمْرِيْمُ اقْنِيتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

فعلى القول بأن معنى القنوت هو الطاعة فتكون الملائكة أوصت بوصية عامة، وهي مداومة الطاعة، ثم أمروا بأفضل العبادات وأشرفها وهي الصلاة؛ إذ هي خير موضوع، وخصوا من هيئتها الركوع والسجود لشرفهما وعظيم أهميتهما، وقدموا السجود على الركوع لشرفه، ولأن المصلي أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد!

وإذا كان الناهي عن السجود شيطاناً إنسياً حكى الله تعالى حاله في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝﴾ [العلق: ٩-١٠]، فهذه حرب أهل الشرك والطغيان على أهل التوحيد والإيمان، ومن هنا جاء الأمر الإلهي: ﴿لَا تُطَعُّهُ﴾ [العلق: ١٩]، أي: فيما ينهاك عنه من العبادة، فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس^(١).

سجدة القرب الغالية:

في الحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(٢).

فحال السجود حال ذلة وانكسار وافتقار واضطرار، وكلما كان العبد أضعف وأدنى كان عند الله أراضى وأعلى وأشرف!

ومن عرف نفسه بالذلة والصَّغار بين يدي الكبير الجبار كان بربه أعرف ولأمره أطوع ولشرعه أتبع!

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يا أيها الإنسان رُكِّبْتَ من العجز لتتنظر إلى كمال قدرته تعالى، ومن الفقر لتتنظر إلى كمال غناه تعالى، ومن الضعف لتتنظر إلى كمال قوته تعالى.

فإذا عرفت ذلك كله، فعليك بالسجود؛ فإن السجود أعظم ما لديك - أيها المسلم - من لذات الدنيا ونعيمها.

لقي سعيد بن جبير مسروقاً رَحِمَهُمَا اللهُ، فقال له: «يا أبا سعيد ما من شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في التراب»، فتجاوب معه مسروق، فقال: «ما من الدنيا شيء آسى عليه إلا السجود لله تعالى»^(١).

سجدة واحدة خير من الدنيا وما فيها:

ففي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ، وَيَضَعَ الْحِزْبَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٢).

فالتقرب إلى الله تعالى يومئذٍ بالعبادة البدنية، لا المالية! وقيل: إن المراد: أنهم يرغبون عن الدنيا ويزهدون بها حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها!

ولشرف السجدة شرفت أماكنها:

فعن أبي هريرة مرفوعاً: «أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا»^(٣).

وسميت مواطن السجود بالمساجد تشریفًا للسجود!

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٨٦٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٨) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (٦٧١) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

وشرف فضل بنائها، كما في الحديث: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ»^(١).

وما ذاك إلا لأن السجود أخصُّ مقامات ومظاهر العبودية لله، وهو مراغمة ومدافعة للشيطان وما والاها.

وفي السجود فضائل ومعانٍ، منها:

١- السجود تذكرة حاضرة بالمبدأ والمعاد:

حين تمرّغ جبهتك بالأرض تذكر قول الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، فيحصل لك من الذكرى والاعتبار والعظة النافعة ما الله به عليم.

خَفَفِ الْوِطَاءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْـ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

٢- السجود صارف بهيئته عن رؤية الدنيا بأسرها:

إذا وضعت جبهتك في الأرض فالتصقّت، وأقبلت ببصرك إلى بقعة يسيرة منها لا تجاوزها ولا تستطيع، فهو تذكير لك بأن الدنيا التي تراها كبيرة هي في حقيقتها يسيرة حقيرة.

«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»^(٢).

ومع التسبيح يجتمع للعبد معرفة بضالة الدنيا، واستشعار لعظمة العبودية، فلا يزيد حجم الدنيا في قلبه عما يراه منها ببصره إذا سجد ووضع جبهته في الأرض.

(١) أخرجه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣. السجود عبادة الظاهر، وتدعو إلى عبادة الباطن:

إن أعضاء الإنسان جميعاً تتشرف بأداء السجود، فاليدان والقدمان والركبتان والوجه - بأنفه وجبهته -، والصلب الذي ينحني يشتركون جميعاً في السجود بما لا يتحقق لقيام، أو ركوع، فإذا انتهت جبهة الإنسان إلى الأرض فقد سجد قلبه، وما بقي إلا أن يسجد قلبه بين يدي ربه.

«أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظَمٍ: عَلَى الْجَبْهَةِ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ - وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ»^(١).

وسجود كل الجوارح إشارة إلى أن العبودية لا تتحقق بتمامها إلا بالكل، لا بالجزء!

٤. السجود عبادة لا التفات فيها:

لقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الالتفات في الصلاة وبين أنه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد!

«لَا يَزَالُ اللَّهُ ﷻ مُقْبِلًا عَلَى الْعَبْدِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ، أَنْصَرَفَ عَنْهُ»^(٢).

والالتفات قديتأتى في القيام، أو الركوع، أما السجود فلا التفات فيه لا بالبدن ولا بالنظر.

فكانه إعانة للقلب على ترك الالتفات عن الرب، بالفرار إليه وحده، والإقبال على جنبه تعالى بلسان الحال والمقال، «لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٨١٢)، ومسلم (٤٩٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٠٨) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- الساجد لله موافق للكائنات في سجودها لله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]
فالساجد موافق للكون في جملته.

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

فهو ساجد للكائنات جميعاً مع التسييح، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا هُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

فالمعرض عن السجود ببدنه ساجد لله بظله، وظلال الأجساد مخلوقة وطائفة لله، وإن عصت الأبدان! فأولى بالإنسان أن يكون ساجداً لربه ببدنه، كما هو ساجد بظله.

٦- السجود الاختياري يحميك من الخزي الاضطراري:

الساجد في الدنيا ساجد في الآخرة، والمتكبر في الدنيا محروم من السجود في الآخرة!

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

وفي الحديث: «يُكْشَفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِثَاءً وَسَمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودَ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»^(١).

فالسجود في الدنيا فيه إظهار الذلة لله اختياراً، والمعرضون عنه في الآخرة يكبكون على وجوههم في النار اضطراراً.

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال تعالى: ﴿فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].

والجزاء من جنس العمل! كما استكبروا عن السجود في الدنيا تكب وُجُوهُهُمْ في النار في الآخرة.

٧- السجود طريق قاصد إلى الجنة:

عن معدان بن أبي طلحة اليعمرى قال: «لقيت ثوبان مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة؟ أو قال قلت: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ»^(١).

٨- السجود سبيل مرافقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة:

سأل ربيعة بن كعب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرافقته في الجنة، فكان جواب المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(٢).

٩- السجود بركة الحياة في الدنيا والآخرة:

فنور الوجه وضياؤه من بركة السجود!

قال تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي مقابلهم: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

(١) أخرجه مسلم (٤٨٨) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٩).

فالساجدون يُعْثُونَ يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِينَ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]

وفي الحديث: «أُمِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرٌّ مِنَ السُّجُودِ، مُحَجَّلُونَ مِنَ الْوُضُوءِ»^(١).

١٠- حال السجود حال كاملة:

قال الله تعالى - في وصف الذين أنعم الله عليهم من النبيين -: ﴿إِذَا نُنَادِيهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] وقال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخْرُجُونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٨-١٠٩].

ترتعش الشفاه فتفيض الدموع، ومن لوازم حال السجود: تقلب القلب بين الخوف والرجاء، قال تعالى: ﴿أَمِنْ هُوَ قُنَيْتٌ أَنْاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتُوبُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤-٦٥].

اللهم كما أكرمنا بالسجود لوجهك الكريم في الدنيا فتقبله منا، وأكرم وجوهنا في الآخرة بلذة النظر إلى وجهك الكريم في دار المقامة، مع الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، برحمتك يا أرحم الراحمين.



(١) أخرجه أحمد (١٧٦٩٣)، والترمذي (٦٠٧) من حديث عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الموعظة الحادية والعشرون

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾

[الحديد: ٤]

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين،
وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فسبحان ربنا رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، سبحان من هو أول
ليس له مبتدأ، وسبحان من هو آخر ليس له منتهى، سبحان من هو ظاهر فليس فوقه
شيء، وسبحان من هو باطن فليس دونه شيء، لا تُضرب له الأمثال، وإنما تُضرب
الأمثال لمن له أمثال، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:
١١]، وأما من لم يزل ولا يزال فما للحس معه مجال، لا يقال له: كيف؟ وإدراك الكيف
له محال، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، هكذا قال الله رب العالمين، فيا أيها المؤمن
كن مع الله يكن الله معك، «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، وأبو داود (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ^(١)

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]،
فسبحان من وسع سمعه الأصوات! فسمع ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء
في ظلمة الليلة الليلاء.

وقد أحسن من قال^(٢):

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرَبِّكَ فِي ظُلْمَةٍ وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ
فَاسْتَحْيِ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي

إن مراقبة الله تعالى منزلة جليلة من منازل السائرين إلى الله، وحقيقة هذه المنزلة:
أن يعلم العبد أن الله مطلع على سره ونجواه، وظاهره وباطنه، أن يقرع قلبه قول الله
تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وأن يرتجف قلبه لقول الله
ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فيلاحظ نظر الله إليه في
خطرات قلبه وخلجات فؤاده، قبل حركات جوارحه وكلمات لسانه، ثم يرتقي فوق
ذلك حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سمواته مستويًا على عرشه، يأمر وينهى، ويخفض
ويرفع، ويعز ويذل، ويقبض ويبسط، فهذا هو مشهد الإحسان، الذي بينه وبيننا عليه
الصلاة والسلام، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٣).

أيها المؤمن كن مع الله، واستحضر كون الله ﷻ معك، فهو معك مع غناه وفقره،

(١) ديوان أبي العتاهية (ص ٣٤).

(٢) نونية القحطاني (ص ٢٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو معك مع قوته وضعفك، وهو معك مع عزته وذلتك، ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»^(١)، إنه سبحانه صاحب الباب الذي لا يُغلق، لا يُغلق بابه في وجه سائل أبداً، مسلماً كان أم غير مسلم، ووقائع الحياة تدل على أنه يجيب المضطر إذا دعاه، من أي مكان كان، وفي أي زمان كان، وبأي لغة نطق، ومن أي دين كان، كلما اضطر عبدٌ إلى ربه أجابه الله، وكان معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إن قاعدة البشرية ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُّونَ﴾ [النحل: ٥٣]، يجأر الخلق إليه مسلمهم وكافرهم على حد سواء، الجميع يهتف: يا الله؛ لأن الجميع يدرك معية الله، يدرك ذلك الموحدون، وأما المشركون فإذا تَكَرَّبُوا بسبب شدة تيقظت الفطر إلى معية الله تبارك وتعالى، فإذا شرع الجميع يدعون دعاء المضطرين فإن الله تبارك وتعالى يجيب برحمته هؤلاء المضطرين، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينَةُ الْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

ولهذا فإن المؤمن حين يمرُّ على قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، يستشعر معية الله الخاصة لعباده المؤمنين، ولحزبه وجنده المفلحين، فهو لا كالكافر ولا كالمنافق؛ لأنه يتعرف إلى ربه في الرخاء، كما يتعرف إليه في الشدة، يتعرف إلى ربه في السراء، كما يتعرف إليه في الضراء؛ لأنه يسعى بجهد أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يرى ربه فإن ربه يراه ويطلع على حاله!

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

معية الله عامة وخاصة:

المعية العامة:

لله ﷻ معية عامة لكل عباده، وله معية خاصة لعباده المؤمنين، فمعيته العامة بعلمه وإحاطته بعباده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، إن هذه المعية الإلهية عامة من جهتين:

الجهة الأولى: أنها حاصلة لجميع العباد، واقعة لصالحهم وطالحهم، برهم وفاجرهم.

الجهة الثانية: أنها عامة لجميع أحوال العباد، جارية في سائر الأزمنة والأمكنة، شاملة للسر والعلانية، محيططة بكل شيء، لا يعزب عنها شيء.

فإذا استخفى العبد من الناس فإن الله معه، كما قال ﷻ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، وإذا جال الأمر في صدر العبد فأخفاه فإن الله يعلمه، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] سبحانه جل في علاه، فله ﷻ الإحاطة التامة الشاملة، قال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وهذا في حق جميع عباد الله.

إن هذه المعية العامة هي التي استحضرتها تلك الأعرابية في الصحراء، لما أريدت على معصية الله وقيل لها: لا يرانا إلا الكواكب، قالت: وأين مكوكبها؟! أين الله؟! (١)،

(١) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤/ ٥٦٣).

إن تصور معية الله لكل أحد وفي كل حالة أمر جليل رهيب، إنها حالة تهز القلوب، لا يثبت لها قلب، ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز خوفاً، وحياءً، وربما أنسا بالله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

إن مجرد معية الله لكل إنسان ومراقبته ظاهره وباطنه أمر هائل، فكيف إذا كان يتبع ذلك حساب وعقاب؟! وكيف إذا كان ما يُسرّه المتناجون ويخفونه سيعرض على الأَشهاد يوم القيامة؟!

والطاعات تجعل مع العبد معية الله ونصره وحفظه، والذنوب تجعل العاصي في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيد هواه: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

المعية الخاصة:

أما في حق عباده المؤمنين فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ويقول جل في علاه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ويقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، هذه معية قُربٍ تتضمن الموالاة والنصر والحفظ والإعانة، هذه معية خاصة لعباده المؤمنين ولجنده الصادقين، مصاحبة وموالاة ونصرة وإعانة، مع معيته لهم بالعلم والإحاطة.

وهذه المعية الخاصة إنما تحصل لعباد الله المتقين، وحزبه المفلحين، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «من يتق الله يكن الله معه، ومن يكن الله مَعَهُ لا تُغلب،

والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضلُّ»^(١).

ومعية أخص من الخاصة:

هناك معية أخص من معية الله تعالى لعباده المؤمنين، وهي معيته لصفوة خلق الله أجمعين، إنها معيته لعباده المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولجند المخلصين، هي المعية التي آمن الله بها موسى وهارون في مواجهة بطش الفراعنة، فقال: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ (٤٥) ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَارْأَيْ﴾ (طه: ٤٥-٤٦)، وهي المعية التي ملأت قلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثقةً و يقيناً واعتزازاً حين قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، فما كان منه إلا أن قال لهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وهي المعية التي أعمت كفار قريش حين خرجوا في إثر الرسول المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه يوم الهجرة، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرِبُهَا فَعَدَّ نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

هذه معية الله تعالى لعباده المرسلين في وقت شدة وضيق واحتراب بين جند الله المخلصين وبين هؤلاء الشراذم من شُذَّاذِ الخلق الكافرين الملحدين، فمن كان الله معه فالنصر حليفه، والتوفيق نصيبه، والفلاح سبيله وطريقه! ولكل مؤمن حظه من معية الله بحسب حاله في طاعة الله وتقواه.

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٨٥).

فكن مع الله في سيرك إلى الله، واذكر قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا» ^(١)، احفظ الله - إذا - ليحفظك الله، كن مع الله في سيرك، وفي طريقك إلى الله، يكن الله معك حفظاً وتأييداً، واذكر قول الذي قال ^(٢):

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرِكَ تَشْغُلُهَا عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِمُهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بَوَاجِهُكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي
إِذَا اشْتَكَّتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْعَدَهَا رَوْحَ الْقُدُومِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بزخرفها فافرح أنت بفضل الله وبرحمته، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

اللهم أدخلنا في عبادك الصالحين، واجعلنا أهلاً لمعيتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الجواب الكافي، لابن القيم (ص ١٩٨).

الموعظة الثانية والعشرون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

[المائدة: ٢٧]

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، أما بعد:

فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، هذه الآية أقلقَت قلوب الصالحين؛ وأقضت مضاجع المحسنين؛ ذلك أن أهل الإسلام جميعاً يعلمون أن العمل الصالح هو سبب النجاة في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال جلَّ من قائل: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، والثواب على العمل في الآخرة سبب في دخول العبد الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

لكنَّ حصول ثواب العمل الصالح أمرٌ أخفاه الله تبارك وتعالى، فما كُلُّ مَنْ عَمِلَ عملاً صالحاً لقي عليه الثواب الموعود، وجوزي عليه بالخير المشهود، فمن الناس

مَنْ يَصْلِي الصَّلَاةَ فَلَا يَكْتُبُ لَهُ إِلَّا نِصْفُهَا، أَوْ ثُلُثُهَا، أَوْ رُبْعُهَا، أَوْ قَدْ لَا يَثَابُ عَلَيْهَا إِلَّا بِمَقْدَارِ عُسْرِهَا، فَذَهَبَ مَعْظَمُ ثَوَابِهَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَبُولَ أَمْرٌ خَفِيٌّ، وَهُوَ مُشْرُوطٌ بِأَمْرِ أَخْفَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فَالْقَبُولُ لَا يَنَالُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ التَّقْوَى فِي الْقَلْبِ خَفِيَّةً، لَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى صَدْرِهِ وَهُوَ يَبِينُ أَنَّ التَّقْوَى ههنا^(١)، وَأَنَّ هَذَا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ إِلَّا عِلَامُ الْغُيُوبِ، وَأَهْلُ التَّقْوَى هُمُ أَهْلُ الْقَبُولِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٦].

وهذا القبول يكون على درجات، فمنها: درجة القبول الحسن، وقد قال الله تعالى - في حق مريم -: ﴿فَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومن القبول: قبول يُسْقَطُ الطَّلَبُ، وَيَقَعُ بِهِ الْإِجْزَاءُ، ثُمَّ يَتَعَلَّقُ بِهِ الْأَجْرُ وَالثَّوَابُ.

ومن القبول: ما هو مرادف للصحة باصطلاح الفقهاء، فيسقط به الطَّلَبُ، وَقَدْ لَا يَنَالُ صَاحِبَهُ أَجْرًا وَلَا ثَوَابًا - عِيَادًا بِاللَّهِ تَعَالَى - كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ»^(٢).

فينبغي أن يُعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَقْبُولٍ مِنَ الْأَعْمَالِ صَحِيحٌ، وَلَيْسَ كُلُّ صَحِيحٍ يَكُونُ مَقْبُولًا، لَقَدْ ابْتَهَلَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى رَبِّهِمْ جُلٌّ فِي عِلَالِهِ بِطَلَبِ الْقَبُولِ، وَهَذَا الْإِبْتِهَالُ وَذَلِكَ الرَّجَاءُ وَذَلِكَ الدُّعَاءُ يَدُلُّ عَلَى خَفَائِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ - عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ -: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٦٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَتَقَبَّلَ دُعَاءَ ﴿ [إبراهيم: ٤٠]، ولما ضحَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ ضَحَّى بِهِ»^(١)، وهذه أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تحكي حال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى الصبح، فإنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا»^(٢).

فليس لأحد أن يقطع لنفسه بقبول عمله الصالح، ولا باستحقاقه الثواب، وإن جاز له أن يقطع بصحة صلاته وصيامه وحجه وزكاته على نحو ما ثبت في الشرع المطهر من أحكام، بل إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينهى ويزجر عن أن يقطع الإنسان بالقبول لنفسه أو لغيره، فقد ردَّ على أم العلاء الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قولها - لعثمان بن مظعون لما مات من جراحه - «رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله، فقال لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟! فقالت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ - وَاللَّهِ - الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي - وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ - مَا يُفْعَلُ بِهِ؟»^(٣)، فهذا تعليم لأنفسنا ولمن نحبه من أهل الدين والصيانة والأمانة ألا نقطع بثواب العمل وقبوله، وإنما نرجو الله تعالى المغفرة والقبول، ونبحث عن أسباب المغفرة والقبول ونتعرض لتلك الأسباب.

أسباب القبول وعلاماته:

١ - ابتغاء وجه الله ﷻ بالعمل: قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وفي الحديث: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُبْتُ عَلَيْهَا،

(١) أخرجه مسلم (١٩٦٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥٢١)، وابن ماجه (٩٢٥) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٧).

حَتَّى اللَّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي أَمْرَاتِكَ»^(١)، وهذا يعني: أن كل عمل - جَلَّ أو دَقَّ، كَبُرَّ أو صَغُرَ - مفتقر في قبوله إلى الإخلاص، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتَغَى بِهِ وَجْهَهُ»^(٢).

٢- أن يوافق العمل ما جاء به الشرع وصحَّت به السنة: إن وجوب متابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصول الدين، وقد دلت عليها آيات وأحاديث كثيرة جليلة، منها: قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْتُ فَحَذُّوهُ وَمَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وغير ذلك من الآيات، أما الأحاديث، فمنها: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٣)، و«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خُطِبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَحَكُمْ وَمَسَاكُمْ، وَيَقُولُ: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ - وَيَقْرُنُ بَيْنَ إصْبَعَيْهِ: السَّبَابَةُ، وَالْوُسْطَى - وَيَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ»^(٤).

فعلى هذا لا يقبل عمل على غير هدي وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل عمل على غير سبيل السنة مردود، وصاحبه عائد بالوزر، فاقد للأجر.

٣- المداومة على العمل؛ فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (١٦٢٨). من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي (٣١٤٠) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»^(١).

٤- أن تزيد الأعمال الصالحة، وأن تكثر، وأن تترقى أحوال قلب المؤمن، وقد قيل: من وجد ثمرة عمله عاجلاً، فهو دليل على وجود القبول آجلاً.

وثمره العمل العاجلة: الزيادة في الطاعة بعد الطاعة، فثمرة العمل: أن يلتذ العبد بالطاعة، وأن تحلو في قلبه وعلى لسانه المناجاة، وأن يأنس القلب بمراقبة الرب جل في علاه، وأن تفرح الروح بذكر الله، وهذا كما قال الله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء.

٥- أن يتخلى الإنسان عن موانع القبول، وأن يتجافى عنها، فمن موانع القبول: الشرك بالله تعالى، وقد قال الله تعالى - لنبيه -: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والشرك هنا يدخل فيه: الرياء، فالرياء شرك خفي، قال عليه الصلاة والسلام: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(٢)، فالشرك أعظم أسباب حبوط العمل، وفساد العبادة، وزوال الأجر.

ومن موانع القبول: أكل الحرام: فأكل الحرام من أعظم موانع قبول العمل الصالح؛ إذ إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وهو الذي قال جل في علاه: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلُوا

(١) أخرجه مسلم (٧٨٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿[المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ، يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!﴾^(١).

وقد بينَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ إِطَابَةَ المَطْعَمِ سببٌ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وَقَبُولِ المُنَاجَاةِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَطِيبْ مَطْعَمَكَ، تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدُّعْوَةِ»^(٢).

خوف الصالحين من عدم قبول العمل:

إِنَّ مِمَّا أَقْلَقَ الصَّالِحِينَ وَعِبَادَ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ خَوْفَ رَدِّ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ؛ وَلِهَذَا أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٦]، وَالتَّعْبِيرُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَنْهُمْ﴾، يَدُلُّ عَلَى التَّجَاوُزِ، فَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ تَعَالَى: نَقَبَلُ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿نَقَبَلُ عَنْهُمْ﴾، فَهَذَا فِيهِ تَضَمِينٌ لِمَعْنَى التَّجَاوُزِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَتَقَبَّلَهَا مِنْهُمْ.

وَالْعَامِلُ يَخَافُ التَّقْصِيرَ، وَالتَّقْصِيرُ سَبَبٌ لِنَقْصَانِ الْأَجْرِ؛ وَلِهَذَا وَاجَهَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِطَلَبِ حَاسِمٍ جَازِمٍ، فَقَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فَإِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَلَمْ يَشْكُرْهُ حَقَّ شُكْرِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ حَقَّ ذِكْرِهِ، وَأَنَّهُ حَاكِمٌ عَلَى نَفْسِهِ بِتَقْصِيرِهِ - فَإِنَّهُ لَا يَسْعُهُ - بَعْدَ أَنْ يُؤَدِيَ الطَّاعَةَ - إِلَّا أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَعْتَذِرَ مِنْ تَقْصِيرِهِ وَمِنْ تَفْرِيطِهِ؛ إِذْ حَاجَتُهُ إِلَى الْعَفْوِ أَعْظَمَ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَى الثَّوَابِ؛ وَلِذَلِكَ فَأَهْلُ الطَّاعَةِ وَالصَّلَاحِ يَأْتُونَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الْكَثِيرَ، ثُمَّ يَخَافُونَ

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ألا يتقبل الله ﷻ منهم، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قلت: يا رسول الله ﷺ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ» [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر؟ قال: لا، يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ - أو: يَا بِنْتُ الصَّدِيقِ -، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُ، وَيُصَلِّي، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ»^(١) وقال بعض السلف: «الآخرة إما عفو الله، أو النار، والدنيا إما عصمة الله، أو الهلكة»^(٢).

وقبول الأعمال إنما هو في الحقيقة داخل في باب الرجاء؛ لأن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَأَعْلَمُوا أَنْ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»^(٣)، وفي الصحيحين: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»^(٤).

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ

فالله تبارك وتعالى لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم.

ولهذا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل مقابلة الثواب للعمل إنما هي من باب السبب لا الجزاء؛ فإن الجزاء بالجنة عظيم جداً، ألا إن سلعة الله غالية، وسلعة الله ﷻ التي هي الجنة اشترى الله تعالى في مقابلتها من المؤمنين أنفسهم وأموالهم!

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) شرح حديث ليبيك اللهم ليبيك، لابن رجب (ص ١٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) نونية ابن القيم (ص ٢٠٨).

والباء في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ليست باء المقابلة والمعاوضة، وإنما هي باء السببية، فدخل الجنة بسبب الأعمال، ثم بسبب التوفيق إليها، والهداية للإخلاص فيها، والقبول إنما هو برحمة الله جل في علاه؛ ولهذا جاء في الصحيح: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ»^(١)، أو «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ»^(٢)، أو «لَنْ يُنْجَوْ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ»^(٣)، أو «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»^(٤)، فالتوفيق للعمل من رحمته تبارك وتعالى، وكذلك دخول الجنة.

لأجل هذا رأينا أسلافنا الصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين تكثر مخاوفهم عند قرب الأجل وعند أوان طيِّ صحيفة العمل، وسبب ذلك: خوفهم من رد أعمالهم وعدم قبولها؛ فقد قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عند موته -: «ألم تر أن الله ذكر أهل الجنة بصلاح ما عملوا، وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: ألا بلغ هؤلاء، وذكر أهل النار بسوء ما عملوا، ورد عليهم صالح ما عملوا فيقول القائل: أنا خيرٌ من هؤلاء»^(٥).

ولما طعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال له ابن عباس: «أبشر بالجنة، صاحبت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأطلت صحبته، ووليت أمر المؤمنين فقويت وأديت الأمانة، فقال: أما تبشرك إياي بالجنة، فوالله لو أن لي - قال عفان: فلا والله الذي لا إله إلا هو، لو أن لي - الدنيا بما فيها لافتديت به من هول ما أمامي قبل أن أعلم الخبر»^(٦)، كل هذا وهو أحد العشرة المبشرين، وثاني الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين!

(١) أخرجه أحمد (٨٥٢٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٧٤٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٤٣٣).

(٦) أخرجه أحمد (٣٢٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأما أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «يَا لَيْتَنِي كَبْشًا، فذَبَحَنِي أَهْلِي، فَأَكَلُوا لَحْمِي، وَحَسَوْا مَرْقِي»^(١).

وسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «... وثلاثة أحزنتني حتى أبكتني: فراق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحزبه والأحبة، وهول المطلع، والوقوف بين يدي ربي، لا أدري إلى الجنة يؤمر بي، أو إلى النار»^(٢).

وهذا ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «لو علمت أن الله تعالى تقبل مني سجدة واحدة، أو صدقة درهم، لم يكن غائباً أَحَبَّ إِلَيَّ من الموت»^(٣).

بهذا نكون قد وعينا وفقهنا عن سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم فقه قبول العمل وفقه سؤال الله القبول، فهم الذين كانوا إذا صاموا رمضان سألوا الله تعالى القبول ستة أشهر، فإذا انقضت الستة الأشهر الأولى سألوا الله البلاغ إلى رمضان فيما بقي^(٤).

نسأل الله تعالى أن يصلح لنا ما بقي من أعمارنا، وأن يغفر لنا ما مضى من أعمالنا، وأن يتقبل عنا؛ إنه جواد كريم، بَرُّ رؤوف رحيم، والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المتمنين (٢٢).
 (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (٢٩).
 (٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٤٦/٣١).
 (٤) لطائف المعارف، لابن رجب (ص ١٤٨).

الموعظة الثالثة والعشرون

في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[المؤمنون: ٨٠]

الحمد لله الذي خاطب أولي الألباب، وجعلهم أهلاً لمعرفة الحق وإصابة الصواب، وصلى الله على نبينا محمدٍ أكمل الخلق علماً وعقلاً، وأزكاهم أدباً وخلقاً، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن نصوص القرآن متكاثرة على مخاطبة العقل وتقديره واحترامه، ورفع قيمته، والثناء على أهله، والدعوة إلى إعماله وترك إهماله.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ [طه: ٥٤].

فما هو العقل الذي خوطب أصحابه في الكتاب والسنة؟

لا شك أن الجواب متعدد ومتنافر أحياناً، حتى قال قائل:

سَلِ النَّاسَ إِنْ كَانُوا لَدَيْكَ أَفْضَلًا عَنِ الْعَقْلِ وَانْظُرْ هَلْ جَوَابٌ مَحْصَلٌ

المعنى اللغوي للعقل:

قال ابن فارس: «العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عَظْمُهُ على حُبْسَةٍ في الشيء، أو ما يقارب الحُبْسَةِ، من ذلك: العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل»^(١)، وهذا هو العقل الممدوح، لا مجرد الإدراك والتمييز.

ومن ذلك: العقل الذي تُعَقَّلُ به الدابة؛ لمنعها من الانطلاق، ومن اعتُقِلَ لسانه فقد حُبِسَ عن الكلام، ومن اعتقل بدنه فقد حُبِسَ عن الخروج والحركة، والعاقل من يحبس نفسه عن هواها.

فكل ما حَبَسَ الإنسان عن الشر وأدرك به الخير فهو عقلٌ، وأما الإمساك عن فعل الخير فلا يسمى عقلاً!

وعند بعض اللغويين يطلق العقل على الفهم والتدبر، أو على العلم مطلقاً، أو العلم بصفات الأشياء من جهة الحسن والقبح، والكمال والنقص، ونحوها كالعلم بخير الخيرين، وشر الشرين.

وأما ما ورد بأن العقل هو القلب، والقلب هو العقل، فبسبب أن القلب آلة التعقل وأداته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

[ق: ٣٧].

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٤ / ٦٩).

فهذا من إطلاق المحل - وهو القلب - وإرادة الحال - وهو غريزة العقل.

وقد رويت أحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العقل كلها لا تثبت فهي بين موضوع وكذب، أو ضعيف لا حجة فيه^(١).

موقف القرآن من عقل الإنسان:

أولاً: احترام العقل، والحث على التعقل:

قال تعالى: ﴿فَإِشْرَعِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْتَقُونِيتَ أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

وفي الحديث: «لِيَلْبِسَنِي مِنْكُمْ أُولُوا الْأَخْلَامِ وَالنُّهْي»^(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يختص هذا التقديم بالصلاة، بل السنة أن يقدم أهل الفضل في كل مجمع إلى الإمام وكبير المجلس، كمجالس العلم والقضاء والذكر

(١) انظر: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، لابن عراق (١/٢١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٢) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمشاورة، ومواقف القتال وإمامة الصلاة والتدريس والإفتاء»^(١).

ثانياً: أمر العقل بالتدبر والنظر في القرآن:

قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَبْأَعْيُنَ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وجاء النعي والتحذير ممن صغر عقله، وسفه حلمه؛ ففي الحديث: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدُثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال النووي: يستفاد منه: أن الثبوت وقوة البصيرة تكون عند كمال السن، وكثرة التجارب، وقوة العقل»^(٣).

ثالثاً: ذم التقليد الأعمى الذي هو غطاء العقل وحجاب الفهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فالتقليد بغير حجة وفي الباطل من القول والعمل مذموم مطلقاً.

(١) شرح مسلم، للنووي (٤/ ١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) فتح الباري (١٢/ ٢٨٧).

رابعاً: توجيه العقل إلى مجالاته النافعة، وكفه عن الخوض فيما لا يطيق:

فمن ذلك: التوجيه للنظر في صفحة الكون المنظور:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ [ق: ٦]

وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

وجاء النهي عن التفكير في حقيقة ذات الله، وكنه صفاته، وقدره:

ففي الحديث: «تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ اللَّهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ»^(١).

وموقف الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من السائل شهير، فلا فرق بين البحث في كيفية الذات، وكيفية الصفات، وفي القدر، روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نتنازع، فقال: أَبْهَذَا أُمِرْتُمْ؟ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُتَنَازَعُوا فِيهِ»^(٢).

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل سائل، فقال: «يا أبا الحسن، ما تقول في القدر؟

فقال: طريق مظلم فلا تَسْلُكُهُ.

فقال: يا أبا الحسن ما تقول في القدر؟

فقال: بحر عظيم فلا تَلِجُهُ.

فقال يا أبا الحسن ما تقول في القدر؟

فقال: سر الله فلا تَكَلِّفُهُ»^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١١٩)، وأبو الشيخ في العظمة (١)، والطبراني في الأوسط (٦٣١٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٣٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١١٢٣).

ولذا كان أهل السنة من أحرص الناس على الوسطية في شأن العقل بين إهماله وتقديسه، وبين معارضة النقل به وإسقاطه.

خامساً صيانة العقل وحفظه، من جانبي الوجود والعدم:

١- حفظ العقل من جانب الوجود:

ويتم ذلك بعدة طرق، منها:

الطريق الأول: تحرير العقل البشري من رق التقليد الباطل:

فقد فتح الإسلام للعقل باب النظر، وجعل من المنهيات الباطنة: إهماله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، أي: لو كنا نسمع قول الرسول، أو نعقل وجه الدليل - وهو محل معرفة الإله، ومناطق خطابه وتكاليفه، ويتوصل به إلى معرفة مصالح الدنيا - لم نكن من الهالكين.

الطريق الثاني: تنمية المدارك العقلية بالتفكير والنظر:

كثيراً ما يدعو القرآن إلى النظر العقلي والتفكير؛ لاستخراج الأسرار الكونية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

وهذه بعض ضوابط النظر العقلي لتجنب الزلل والانحراف، ومنها:

أ- الحذر من اتباع الهوى عند البحث عن المصالح.

ب- الحذر من أحادية المعرفة عند البحث عن المصالح، فالإسلام يرفض التجزئة التي تنادي بالعقل فقط، أو الحس فقط كمصدر أساسي للمعرفة الصحيحة، أو بالنظر إلى الدنيا بمعزل عن الآخرة.

٢. حفظ العقل من جانب عدم:

ويتم ذلك بعدة طرق، منها:

الطريق الأول: تحريم المسكرات والأمر بإزالتها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، ويلحق بالخمير كل ما يسكر العقل، ويذهب به.

الطريق الثاني: تشريع حد شرب الخمر؛ وذلك لأن الحد مشروع لحفظ العقول عن الطيش والاختلال، فمن جنى على العقل استحق العقاب.

الطريق الثالث: لا يقتصر حفظ العقل على تحريم المسكرات، وتشريع الحدود، بل يتعدى إلى كل ما من شأنه أن يشغل العقل عن مهامه، وكل ما يشل طاقته وحركته الفكرية، ويحول بينه وبين أداء وظيفته التي من أجلها خلقه الله تعالى.

ومن وسائل ذلك: أن يمنع ولي الأمر انتشار المذاهب الضالة، وعلومها بين العوام؛ لما تفضي إليه من انحراف في التفكير، وإخلال بمسئولية العقل، فلا نتيجة ترجى من وراء تلك الفلسفات والمذاهب، بل هي تضييع للطاقات الفكرية فيما لا يفيد.

فاللهم انفعنا بما نقول وثبت فينا العقول، إنك أكرم مسئول، وخير مأمول، وصلى وسلم وبارك على النبي الرسول، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



الموعظة الرابعة والعشرون

في قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ
ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦].

الحمد لله أورثنا الكتاب واصطفانا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا ومصطفانا،
وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الوراثة: أن يحصل للإنسان شيء لا يكون عليه فيه تبعه، ولا محاسبة، والأب
موروث ومورث، والمال موروث ومورث، وكل ما تركه السابق للاحق من خبرة، أو
حق، أو تجربة أو نحوها فهي إرث وميراث وتراث.

والله تعالى هو الوارث وله ميراث السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا
تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

والوراثة - بمعناها العام - منها: ما يُحمد، ومنها: ما يُذم، ومنها: ما هو من المباح
الذي لا يتعلق به حمد ولا ذم.

أما الوراثة المحمودة فعلى أربعة أنواع:

١- وراثَةُ النُّبُوَّةِ بِنُبُوَّةٍ:

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ﴾ يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٥-٦﴾ [مريم: ٥-٦].

فقد خشي زكريا عليه السلام ألا يقوم قومه من بعده بحق النبوة والعلم، فسأل الله أن يرثه نبي من صلبه! بعد أن ورث زكريا النبوة عن آبائه وأجداده!

ولا يرد أنه يريد وراثته المال هنا؛ لأن زكريا نبي لا يورث، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا -مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ- لَا نُورَثُ»^(١)، ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(٢)، ولأنه عليه السلام كان نجارًا زاهدًا في الدنيا.

٢- وراثَةُ النُّبُوَّةِ بِعِلْمٍ صَالِحٍ:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

فهذا إرث العلماء والأولياء الصالحين من أنبيائهم المرسلين، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(٣) وهذه الوراثة داخلة في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبْلَغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»^(٤)، والمراد بالوراثة المحمودة - هنا - وراثته علم الأنبياء مع القيام بحقه عملاً ودعوةً، أما وراثته الكتاب دون القيام بحقه فهو من الوراثة المذمومة، كما سيأتي.

(١) أخرجه أحمد (٩٩٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) سبق تخرجه.

(٤) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

٣- وراثته الأرض بإصلاحها وعمارته:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

[الأنبياء: ١٠٥].

وأول من ورث الأرض واستخلف فيها: نبي الله آدم عليه السلام؛ لعمارته بالتوحيد والإيمان والعلم الصالح...، ثم قد تغلب عليها مع مر الزمان وتوالي الأيام طغاة جبارون، أو غزاة بربريون، يعيشون في الأرض فسادًا بالكفر تارةً، وبإشقاء الخلق تارةً أخرى، لكن الدولة الأخيرة والجولة الختامية لعباد الله الصالحين، فما عليهم إلا أن يطلبوا موعود الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح؛ ليحصلوا مرادهم مما وعدهم به ربهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وهذا وعد قديم للأمم من قبل أمة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو باقٍ في هذه الأمة حتى تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. ولا يتحقق هذا الوعد إلا لمن قام بشرطه الذي أجمل هنا في الإيمان والعمل الصالح، وفصله الله في سورة الحج، فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

٤- وراثته الجنة:

إن وراثته الجنة هي الوراثة العظمى التي طلبها نبي الله إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿وَجَعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥]؛ إذ هي وراثَةُ السعادة الأبدية، ولا تتحقق إلا لمن حَسَنَ عمله بعد إيمانه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، هذه الوراثة العظيمة هي التي يَحْمَدُ عليها المؤمنون ربَّهم يوم القيامة، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وأما الوراثة المذمومة فعلى نوعين:

١ - تقليد الآباء فيما هم عليه من الكفر والضلال:

كما هو ديدن المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

٢ - وراثَةُ العلم والكتاب دون القيام بحققهما من العمل والدعوة:

كما ورث متأخرو بني إسرائيل الكتاب عن آبائهم، فاشتروا به ثمنًا قليلًا، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقَدْ لَغِيَ شَكَّ مِنْهُ مَرْبٍ﴾ [الشورى: ١٤]؛ ولذلك ذمهم الله تعالى، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

فاللهم ألحقنا بالورثة الصالحين المصطفين من عبادك، وأجرنا من عمل الضالين والمغضوب عليهم، واجعلنا برحمتك من ورثة جنة النعيم، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الموعظة الخامسة والعشرون

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾

[التحریم: ٦].

الحمد لله ربّي عباده بالنعمة، وأحسن إليهم بدفع النقم، ومن تمام نعمته ورحمته أن أرسل إليهم رسولاً وأنزل إليهم كتاباً، يهديهم للتي هي أقوم، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم، أما بعد:

فإن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] خطاباً للآباء وللأمهات، وهذا الخطاب يدور حول وقاية النفس والأولاد من النار - عياداً بالله - وهذه الآية تحمل رسالات متعددة للآباء وللأمهات، نحاول أن نبين طرفاً منها في هذه الكلمات:

الرسالة الأولى:

الذرية نعمةٌ يجب أداء حقها، وتأدية حقها إنما يكون بشكرها، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢].

وقيمة هذه النعمة - نعمة الأبناء وأبناء الأبناء - لا تظهر على وجهها إلا إذا حُرِمَها الإنسان، وقد قال الله: ﴿وَجَعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠]، فالحياة بدون أولاد حياة عقيمة، الحياة بدون ذرية مظلمة كثيبة إلا من رحمة الله تبارك وتعالى، والنعم حقها أن تُشكر، قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وهذا العمل الذي نؤدي به شكر نعمة الذرية والأبناء هو التربية والتنشئة على معالي الأمور.

إن الأبناء أمانة ومسئولية، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

ويقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] يعني بذلك تبارك وتعالى: أن الذرية إذا كانت في درجة نازلة عن ذرية الآباء في الجنة فإنهم يلحقون بهم في الدرجات العليا؛ حتى يحصل الاجتماع في الآخرة، كما حصل الاجتماع في الدنيا.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّبِيُّ أمانةٌ عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرَةٌ نفيسةٌ خاليةٌ عن كل نقشٍ وصورة، وهو قابلٌ لكل نقش، ومائلٌ إلى كل ما يُمالُ إليه، فإن عُوِدَ الخيرَ نشأ عليه، وسَعِدَ في الدنيا والآخرة أبواه، وإن عُوِدَ الشرَّ وأُهْمِلَ إهمالَ البهائم شَقِيَ وهَلَكَ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه.

وكما أن البدن في الابتداء لا يُخلَق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى بالغذاء، فكذلك النفس تُخلَق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية، وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٧٢).

إذا فأول هذه الإشارات: أَدَّ شَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ، نِعْمَةُ الْأَبْنَاءِ بِتَرْبِيَتِهِمْ، وَذَلِكَ بِالنَّشْئَةِ عَلَى مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ.

الرسالة الثانية:

تَحَرَّ الْحَلَالُ أَيُّهَا الْأَبُ وَأَيُّهَا الْأُمُّ، فِي مَطْعَمِ الْوَلَدِ خَاصَّةً، وَتَذَكَّرَا قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»^(١)، وَتَذَكَّرَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَتَأَيَّهَا أَرْسُلْ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»^(٢).

إِنَّهُ لَغَبْنٌ شَدِيدٌ أَنْ تُتْعَبَ نَفْسُكَ فِي جَمْعِ الْمَالِ الْحَرَامِ، ثُمَّ تَضَعُهُ لِقْمَةً فِي بَطْنِ أَوْلَادِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مَنَقَلِبُهُمْ وَمَنَقَلِبُكَ - عِيَادًا بِاللَّهِ تَعَالَى - إِلَى النَّارِ، تَذَكَّرْ حَسَاسِيَةَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّتِي رَوَتْهَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ قَالَتْ: «كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخَرَجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكْهَنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أَحْسِنُ الْكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِينِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ»^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ (٥٣٧٥)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ (١/ ٣١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٠١٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٨٤٢) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالنفس تطيب بأكل الطيبات، وتخبث بأكل المحرمات، ومن طابت نفسه تحركت إلى طاعة الله، ومن خبثت نفسه تحركت إلى معصية الله.

إن الشكوى في بيوت المسلمين كثيرة من فساد الأولاد، وما ذاك إلا لأسباب، على رأسها: ترك تحري الآباء للحلال المحض فيما يدخلونه أجواف أبنائهم!

الرسالة الثالثة: كن قدوة أبيها الأب وأيتها الأم:

إن الصبي أمانة عند والديه، فإن عود الخير وعُلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وأسعد من حوله، يقول بعض علمائنا: «وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء»^(١)، وفي الحديث: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، أَوْ يَنْصَرَانِهِ، أَوْ يَمَجَّسَانِهِ»^(٢)، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَأَلَ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ أَحْفَظَ ذَلِكَ، أَمْ ضَيَّعَهُ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(٣)، وهكذا من النصح للأولاد: أن يكون الأب قدوة صالحة لهم، وبين أعينهم، يقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ الْخَيْرَ»^(٤).

وقال الأول^(٥):

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَانَ عَوْدُهُ أَبَوُهُ
وَمَا دَانَ الْفَتَى بِحِجَابٍ وَلَكِنْ يُعَوِّدُهُ التَّدْيِينَ أَقْرَبُوهُ

إن الطفل يبدأ بالتقليد من السنة الثانية تقريباً، ويبلغ غايته في السادسة، ويستمر إلى نهاية الطفولة، والتلقين لا يثمر ما لم تكن قدوة، قال بعضهم - لمعلم أولاده -: «ليكن

(١) تحفة المودود بأحكام المولود (ص ٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٩١٢٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٧٤١).

(٥) اللزوميات، لأبي العلاء المعري (٢ / ٤١٣).

أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك؛ فإنَّ عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبیح عندهم ما تركت»^(١)، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بُتُّ عند خالتي فقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يصلي من الليل، فقامت أصلي معه، فقامت عن يساره، فأخذ برأسي فأقامني عن يمينه»^(٢)، هكذا اقتدى ابن عباس برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما رآه قام قام معه، ولم يكن يحسن بعد أن يقف خلف رسول الله، أو بجانبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حتى أقامه رسول الله المقام الصحيح في مصلاه.

فيا أيها الأب، ويا أيتها الأم، إذا طلبتما صلاح الذرية فأصلحا عملكما أولاً؛ فإن صلاح أمركما صلاح - بإذن الله - لأمر ذريتكما، ازرعا فكرةً تحصدوا فعلاً، وازرعا شخصية تحصدوا مصيراً، ولتذكر أن مصير أمتنا مرهونٌ بهذه الشخصيات التي نقوم على تربيتها اليوم في بيوتنا ومحاضننا التعليمية والتربوية.

الرسالة الرابعة: اعتنِ بالتربية:

العظماء ثمرة تربية عالية، فهذا هو الزبير بن العوام حوارى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثمرة تربية صافية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخت أسد الله حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم عبد الله وعروة والمنذر أبناء الزبير هم تربية أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والحسن والحسين تربية فاطمة بنت محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أريب العرب وألمعيها تربية هند بنت عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي التي قالت - عن ابنها -: «ثكلته إن لم يسد إلا قومه»^(٣).

وقد نشأ الأوزاعي يتيماً في حجر أمه فقامت عليه حتى استفتي في الفقه وله ثلاث

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه (٢/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٨).

عشرة سنة، والشافعي ربه أمه وقامت عليه، ومالك بن أنس ربه أمه وقامت عليه، والبخاري والثوري كلاهما ربه أمه وقامت على أدبه، وهذه إشارة واضحة ومثال، والحر تكفيه الإشارة! وأنموذج لمن أراد أن يتمثل مناهج الأولين في التفتيش عن النوابع والعناية بها، ورعايتها وتبليغها ما تستطيع أن تبلغه من الكمال.

إننا نذكر في تاريخنا فاتح القسطنطينية الذي فتحها وهو ابن ثلاث وعشرين سنة بعد ثمانية قرون من الانتظار، لقد رباه شيخه الشيخ آق شمس الدين على كلمة بخصوص القسطنطينية، حين قال له: «عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش، أو يكون لي فيها قبر!»^(١).

ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفي فتح السند وهو ابن سبع عشرة سنة، ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلِيَّ أمر اليمن وهو دون الثلاثين، ومات سيويه وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وقد صار إمام العربية في الدنيا، وقد ولي إياس بن معاوية القضاء صبيًا وله سبع عشرة سنة، وأفتى الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو ابن خمس عشرة سنة.

الرسالة الخامسة: عليك أن تمنح التشجيع والمكافأة:

لقد شجع عمرُ ابنَ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك»^(٢)، وأدخله مع أشياخ بدر وشاوره، وأراهم مما وصل إليه علمه ما لم يصل إليه علم بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال ابن المبارك: «فما رأيت عالمًا، ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظًا للمحرمات في أيام بعد أيام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأيام الخلفاء والصحابة

(١) الفتوح الإسلامية عبر العصور (ص ٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٣٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، ويناظر وهو ابن إحدى عشرة سنة^(١).

الرسالة السادسة: العدل بين الأولاد:

العدل بين الأولاد مطلب شرعي اجتماعي؛ حتى تسلم الأسرة من الغيرة والحسد والعقوق، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: ٨-٩] فلا نظن أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لم يعدل بين أبنائه، ولكن حب بعض الولد فطرة لا يستطيع أن يقاومها الأب لأسباب مختلفة، وهذا الذي حصل مع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، والتمس أبناؤه حبه الزائد ليوسف وأخيه بنيامين فوقع في قلوبهم الحسد تجاه الأخوين؛ فينبغي للأب أن يكتم الحب الزائد لبعض أولاده، ولتكن معاملته الظاهرة سواء بين أبنائه، إذا أراد أن ينتزع داء الحسد من بينهم، وأن يزرع المحبة والألفة تجاه بعضهم البعض، وبذلك تسلم أسرته من الغيرة والحسد والعقوق.

وأخيراً أيها الآباء، أيتها الأمهات، استعينوا بالله على تربية أبنائكم، اغرسوا عقيدة المسلمين وحب الصحابة في قلوبهم، ادعوا لأبنائكم؛ فإن الله تعالى يتقبل دعاءكم، ربوهم على القيم الحميدة، والخلال الجميلة، جنبوهم الأخلاق الرذيلة، والعادات القبيحة، اعتنوا بتعليمهم اللغة العربية والأدب، حفظوهم كتاب الله، وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أبعدهم عن الفتن، وأسباب الغواية، أنفقوا عليهم من غير إسراف ولا تقتير، أشبعوا عواطفهم، واعدلوا بينهم فيما تنفقونه وتمنحونهم من الهدايا والأموال،

(١) تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة (٢/ ٣٣٠).

أوجدوا البدائل المناسبة لهذه الانحرافات المعاصرة، وعوّضوهم لئلا يشعروا بشيء من الحرمان، جنبوهم الميوعة والترّف، وعلموهم القوة والرجولة، راقبوهم في دخولهم وخروجهم، وفي خلواتهم وجلواتهم، نمّوا مواهبهم، وأعدّوا نفوسهم، وأشعروهم بالتحدي الحضاري الذي يواجههم، عوّدوهم المشاركة الاجتماعية، ودربوهم على اتخاذ القرار؛ فإن في ذلك ما يسعدكم، ويسعد أمتكم من بعدكم، ويجعلها في مصاف الأمم المتقدمة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزق أبناءنا صلاحًا وفلاحًا، وأن يرزق الآباء برًا وثوابًا، وأن يجمع بين الآباء والأبناء على درب الصلاح والإصلاح في الدنيا، وأن يجمع بينهم في جنات النعيم في الآخرة، إن ربنا جواد كريم، برّ رؤوف رحيم، والحمد لله رب العالمين.



الموعظة السادسة والعشرون

في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾

[مريم: ٣٩]

الحمد لله الذي أنذر عباده مغبة الغفلة، وحذرهم من سوء منقلب يوم الحسرة، وأرشدهم إلى ما فيه نجاتهم من نار تلظى، وصلوات الله وسلامه على النبي المصطفى، والرسول المجتبي، وعلى آله وأصحابه أولى الأبواب والنهي، أما بعد:

فإن القيامة مشهد مهيب، وحدثٌ جلُّ رهيب! حدث القرآن عنها طويلاً، وأفاض في الحديث عن تفاصيلها كثيراً، وذكر يومها بأسماء تخلع القلوب، وتهز النفوس، وتصدع الصدور، ويشيب لها الولدان.

فهي القارعة تفرع القلوب بأهوالها!

وهي الواقعة التي ليس لوقعتها كاذبة!

وهي الصاخة تصخ الأسماع بشدة صوتها!

وهي الحاقة التي تحقق على الجميع فيبعثون للحساب!

ويومها يوم التغابن، وهو يوم الدين، ويوم التلاق، ويوم الفصل!

لكنَّ من أشدَّ أوصافه وأحزنها وأجلبها للهَمِّ في أمر الآخرة هو: يوم الحسرة!

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقد سمي يوم القيامة بيوم الحسرة؛ لكثرة حسراته، وطولها، وبقائها!

فما أعظم حسرة من أُعطي كتابه بشماله!

وما أعظم حسرة من انصُرِفَ به إلى النار بعد حسابه!

وما أعظم حسرة من دخل النار، ثم قيل: يا أهل النار خلود فلا موت، بعد أن يُذبح الموت!

والحسرات متفاوتة الأسباب والتبعات:

إن الجامع بين المتحسرين - في ذلك اليوم وعند الجزاء - هو قول: ليت، وهل،

ولعل، وآه، ونحو ذلك!!

فمن قائل: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

ومن قائل: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩١) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

ومن قائل: ﴿يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) ﴿يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾

[الفرقان: ٢٧-٢٨].

ومن قائل: ﴿بَحَسْرَتِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنَّبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ومن قائل: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

ومن قائل: ﴿لَيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وحسرات المعذبين بالنار في الآخرة صنوف، منها:

١- حسرة من كذب بيوم الحسرة ولقاء الآخرة:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

يتحسرون في الآخرة؛ لأنهم قالوا في الدنيا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقالوا: ﴿أَءَاذًا مِّنَّا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿[ق: ٣]؛ لأنهم زعموا ألن يُبعثوا، وقالوا- لرسولهم -: ﴿هَيَّاهُ هَيَّاهُ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦].

وعندما يعاينون يوم القيامة، ويشهدون أنفسهم في أرض المحشر- وقد تجلّت لهم الحقائق وظهرت البوائق- يقولون: يا حسرتنا، أي: يا حسرتنا احضري! فهذا وقت مجيئك، وأوان حصولك، وتوقيت نزولك، ويتذكر بعضهم قوله- في الدنيا-: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، أو قوله: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] فتتقطع الأكباد من الحسرات!

٢- حسرة من أتبع غيره في الباطل:

حكى الله ﷻ شيئاً من حسرة هؤلاء، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَتَّبِعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعَ لِمِثْلِهِمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقد عبّر السياق القرآني بالماضي؛ ليدلّ على تحقق الوقوع لا محالة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، فتبرؤ الكبراء من الضعفاء حاصل في الآخرة، وهم يتبرأون مما وعدوهم به، فبماذا وعدوهم؟

وَعَدُوهُمْ فَقَالُوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، وأوهموهم أنهم يهدونهم سبيل الرشاد، فقال قائلهم: ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ففي الآخرة يسألهم الأتباع إنجاز المواعيد التي وعدوهم إياها، فيقولون - لهم -: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]؟! فيأتيهم جواب التبرؤ المحتوم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِبْرَآءٌ لِّأَللّٰهِ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]، ويقولون - لهم -: ﴿مَا كُنْتُمْ إِتِنَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨]، أو يزيدونهم تبرؤًا وتبكيًا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَٰكُنْتُمْ جُحُومِينَ﴾ [سبا: ٣٢].

عندها يتمنى المتبعون فيقولون: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧]، أي: لو أن لنا كَرَّةً فنتبرأ منهم - أي: في الدنيا - كما تبرؤوا منّا في الآخرة، فيأتي الجواب الإلهي الحاسم: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وعبر بالجملة الاسمية: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾؛ ليدل على ثبوت الخلود ودوام البقاء في النار.

وكما يتحسر المتبعون في الكفر والنفاق والشرك، يتحسر المتبعون غيرهم في البدعة والأهواء والانحرافات!

فكل من تابع في خرافات بدعية له نصيبه من الحسرة يوم القيامة، وكل من شايع في ضلالات رافضية له نصيبه من الحسرة يوم القيامة، وكل من وافق على اعتقادات رَدِيَّة

له نصيبه من الحسرة يوم القيامة، وكل من سوَّغ تحريم الحلال وتحليل الحرام وتابع له نصيبه من الحسرة يوم القيامة، وكل من اتبع وعمل بفتيا باطلة - وهو يعلم - فله نصيبه من الحسرة يوم القيامة!!

٣- حسرة الذين نافقوا يوم القيامة:

وحسرة المنافقين من أشد الحسرات يوم القيامة؛ ذلك أنهم يكونون مع المؤمنين بادئ الأمر، ثم يحال بينهم وبين النجاة، فلا يجدون إلا النار! قال الله تعالى - في بيان حالهم -: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥]، قال ابن القيم رحمه الله: «والمقصود: أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء؛ ولهذا يُستهزأ بهم في الآخرة، وتُعطى نوراً يتوسطون به على الصراط، ثم يطفئ الله نورهم، ويقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، ويضرب بينهم وبين المؤمنين: ﴿بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٣-١٤]، وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للبعد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة - ونعوذ بالله من غضبه وعقابه»^(١).

(١) طريق الهجرتين، لابن القيم (ص ٤٠٣).

٤- حسرة الكفار على أعمال ظاهرها البر والصلاح في الدنيا:

يتحسر الكفرة والمنافقون على ما عملوا في الدنيا من أعمال ظاهرها البر والإحسان، لكنها لم تنل من الله القبول؛ لأنها لم تكن ابتغاء وجهه ورضاه، ولا تحقق معها شرط القبول، وهو: الإيمان والتوحيد، فإنهم يُقْبَلُونَ يوم القيامة على ما عملوا في الدنيا من خير يرجون منفعته فلا يجدون إلا السراب، وحينها تقع الحسرة العظيمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفًا لَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وقال ﷺ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وسبب حسرتهم: أنهم بذلوا في الدنيا وأنفقوا وتعبوا ولم يستفيدوا شيئاً؛ لفساد نياتهم، ولو أنهم أخلصوا النيات لانتفعوا بالأعمال، كما قال تعالى - فيمن ينفق ماله رياء الناس -: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٨-٣٩].

٥- الحسرة على أموال أنفقت للصد عن سبيل الله:

قال تعالى - عن هذه الحسرة -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

إنهم ينفقون أموالاً طائلة ليصدوا عن سبيل الله، فيمولون إعلماً فاسداً تارة يُسَوِّقُ للفواحش والرذيلة، وتارة يروج للسخافة والخرافة، وأخرى يدعو إلى البدعة والضلالة؛ ليحسنوا البدعة، ويبغضوا السنة - عياداً بالله!

وتارةً يمولون جيوشاً تقاتل أولياء الله فوق كل أرض، وتحت كل سماء!
وتارةً يدعمون أنظمة علمانية أو قومية في مقابل إقصاء الإسلام وأهله، وسجن
الدعاة وأولياء الله من العلماء العاملين، وسحق المظلومين!

﴿فَسَيَنْفِقُونَهَا﴾ في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، فلا ينالون بغيتهم،
ولا يتتفعون بأموالهم، بل يحصل عكس ما أملوا في الدنيا فيغلبون، وفي الآخرة: ﴿إِلَى
جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

فمن عادى الإسلام وأهله فليبشّر بالحسرة، ومن عادى السنة وأهلها فليبشّر بالخيبة!

٦- حسرة العصاة على التفريط في الطاعات، ومواقعة السيئات:

حسرات العصاة يوم القيامة أنواعٌ منوعة، ودرجات متفاوتة:

فمنها: الحسرة على التفريط في جنب الله بمواقعة السيئات، وترك الفرائض
الواجبات، قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ
السَّخِرِينَ﴾ ٥٦ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ٥٧ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

ومنها: الحسرة على أعمال صالحة بطل أجرها وأحبط ثوابها، بما وقع العبد فيه من
محبطات الأعمال ومفسدات الحسنات، كالحسرة على أعمال وطاعات ضاع ثوابها
بسبب مظالم العباد، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وهذه هي حال
المفلس الذي حدث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عنه، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا:
الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ،
وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ

هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١)، فيا لها من حسرة وخيبة!

ومنها: الحسرة على أعمال صالحة شابتها شوائب الرياء، ورؤية النفس والعمل، فالمرائي يأتي يوم القيامة يحسب أنه على شيء فيجد رياءه قد أذهب عمله، فلا يقدر منه على شيء! قال تعالى: ﴿كَأَلَيْذَى يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال السعدي رحمه الله: «فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاسٍ بمنزلة الصَّفْوَانِ، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب، وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله؛ فلهذا ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها؛ لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية؛ فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾»^(٢).

٧- الحسرة على التفريط في حق النفس والأهل والولد:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تفسير السعدي (ص ١١٣ - ١١٤).

فكثير من الآباء يخسرون أهليهم وأولادهم يوم القيامة بما تركوا من تعليمهم وتأديبهم ووقايتهم من النار، وبما خالفوا قول الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

نكتة لطيفة: في معنى قوله تعالى: ﴿الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]: هو أنه يفرق بينهم وبين أهليهم إما بأن يدخلوا هم النار ويدخل أهلوهم الجنة، أو يسكنوا جميعاً النار مع التفريق بينهم.

٨- الحسرة على مرافقة قرناء السوء:

إن اتباع قرناء السوء من أكبر أسباب الحسرة والندم يوم القيامة، ومن خالط هؤلاء الأشرار فهو على شفا هلكة، إما أن يهلك فيكون فيمن قال الله تعالى - فيهم -: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْتَمِسْنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ (٢٧) يَوَيْلَ لِي لَمَّا اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وإما أن يدركه الله برحمته فيفارق أهل السوء والضلال، فينجو من مرافقتهم في جهنم - عياداً بالله - فيعرف يوم القيامة نعمة الله عليه بذلك، كالرجل - من أهل الجنة - الذي حكى الله عنه، فقال: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ (٥٢) إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَهْنَا لَمْدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلِعُونَ (٥٤) فَأُطْلِعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنِ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥١-٥٧].

وكل صداقة وموادة لا تكون على أساس ابتغاء مرضاة الله تنقلب يوم القيامة بغضاً وعداوة، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال تعالى - على لسان نبيه إبراهيم -: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ

بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴿[العنكبوت: ٢٥]﴾، أما المتحابون في الله والله فأولئك على منابر من نور في ظل عرش الرحمن، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة.

أما أعظم الحسرات فهي حين يأتي العبد يوم القيامة فيكون حاله كمن قال الله - فيهم -: ﴿وَبَدَأْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿[الزمر: ٤٨]﴾.﴾

حين يقول أهل النار - لأهل الجنة -: ﴿أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿[الأعراف: ٥٠]﴾.﴾

يوم يقول أهل النار - لخازنها -: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿[الزخرف: ٧٧]﴾.﴾

يوم يقولون - للجبار -: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠٧]﴾.﴾

فيجابون: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿[المؤمنون: ١٠٨]﴾!﴾

فاللهم اجعل لنا في القيامة وموقفها ظلاً ظليلاً، واجعل لنا فيها فرحاً بفضلك ورحمتك، واجعل لنا فيها قرة عين لا تنقطع، واجعلنا ممن يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿[الحاقة: ٢٤]﴾، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الموعظة السابعة والعشرون

في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا

تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، وسع كل شيء رحمةً وعلماً، فغفر الذنوب جميعاً، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ الداعي إلى مغفرة الله وجنته، الهادي إلى توحيده وطاعته، وعلى آله وأصحابه وأنصاره، إلى يوم الدين، أما بعد:

فهذه وقفات مع آية عظيمة حبيبة إلى كل مسلم ومسلمة، وإلى كل تائب وتائبة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، اللهم يا من إذا وعد وفى، وإذا أوعد تجاوز وعفى، أدخل عظيم جرمنا في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين!

في هذه الآية نداء بالعبودية: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾؛ لتقريب البعيد، وترقيق القلب القاسي، هو نداء لكل عبد من عباد الله أسرف على نفسه واتبع الشهوات، نداء يشمل المسلم وغير المسلم، أضاف الله تعالى الجميع إلى نفسه الشريفة للإيناس والتكريم، وتحقيق الاختصاص.

والإسرافُ على النفس يدل على أن الضرر عائد عليك، وأن النقص راجع إليك، ومن أساء فعلها، «إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي»^(١)، فالإسراف على النفس إنما ترجع عائده على الإنسان بالسلب.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ فهو فتح لباب الأمل في المغفرة والرحمة، ونهي عن الإياس من فضل الله تبارك وتعالى.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإذا كانت الرحمة مضافة إلى الله فإنه رحمن الدنيا والآخرة، أرحم بنا من أنفسنا، وهو أرحم الراحمين الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتب على نفسه الرحمة، وسبقت رحمته غضبه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»^(٢)، وفي رواية: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»^(٣)، نعم .. إنه الله الذي تعرّف إلى عباده، فقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وعرفه أنبيأؤه فقال قائلهم: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

ثم قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ﴾ تأكيد وتعليل، وعدل عن قوله: «إنه» إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ مع أن هذا الموضع هنا للضمير؛ ليشعر بأن الله تعالى يغفر بذاته ولذاته، وليس بالضرورة بسبب آخر يكون من غيره، فهو غافر الذنب، وهو قابل التوب، ومغفرة الذنب صفة الرب: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنَا أَغْفُورُ الرَّحِيمِ﴾ [الحجر: ٤٩]، فهو الذي يغفر الذنوب وحده سبحانه جل في علاه، يغفر الذنوب بكل أفرادها وأنواعها وأجناسها، وما يدخل تحت معناها، يغفرها جميعاً.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هذا تأكيد بعد تأكيد؛ ليشمل الذنوب التي تاب منها العبد، والتي لم يتب منها.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هذا تعليل لهذا الحكم السابق، ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ طرفان معرّفان؛ إذ الضمائر أعرف المعارف، والغفور هو الله، والتعبير بالغفور يشمل الذنوب الكثيرة كما يشمل الذنوب الكبيرة، فهو يغفر الذنوب الكبيرة الكثيرة سبحانه جلّ في علاه؛ لهذا لم يتعرض لما يغفره ويتجاوز عنه سبحانه؛ فإنه حذف ما هو الذنب الذي يغفره؟ وما هو العيب الذي يستره؟ ليدل هذا على عموم مغفرته وعلى سعة مغفرته، وعلى شمول مغفرته لجميع الذنوب والعيوب.

ثم هو بعد ذلك يعد بالرحمة بعد المغفرة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ والوعد بالرحمة بعد المغفرة يُشعر بأن الجاني على نفسه لا يستحق المغفرة لولا رحمة الله تعالى، وهذا ظاهر فيمن لم يتب ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبْرَ الْأَنْثَمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وما ذاك إلا لأنه: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

هذه الآية العظيمة الحبيبة إلى قلوب المؤمنين لها سبب نزول: ذلك أن المشركين زعموا أن الله لا يغفر إلا للمسلمين المؤمنين الموحدين؛ لأنهم عبدوا الأوثان وقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فنزلت الآية تنبه إلى عموم رحمته وسعة رحمته^(١).

وورد أنه ارتدّ بعض أهل الإسلام لعذاب عُدْبُوهُ، منهم: عياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، فكتب الآية عمرُ بيده إليهم فأسلموا وهاجروا^(٢).

ونزلت الآية - أيضًا - في وحشي بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمثاله، ووحشي هو قاتل

(١) أسباب النزول، للواحدي (ص ٧٢٧).

(٢) المصدر السابق.

حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هذا شأن الله فيمن قتل أوليائه ثم تاب!

إنه تعالى يفتح الباب لمن قتلوا أنبياءه، ولمن قتل أوليائه، ولمن قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فقال لهم جميعاً: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤].

إن الله تبارك وتعالى إنما خلّى بين العبد وبين الذنب ليعرف العبد عزّته في قضائه، وليعرف برّه في ستره، وحلمه في إمهاله؛ ليعرف العبد كرمه في قبول عذره، فيتعرف العبد على الرب بسبب الذنب، ومن أجل ذلك ينكسر القلب، وينطرح بين يدي الرب، وعندها إذا قال العبد لربه: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقدرتك وقوتك وضعفي إلا جبرتنني، أسألك بغناك وفقري إليك إلا أكرمتني، إذا قال العبد لربه: هذا عبدك الضعيف منطرح بين يديك، هذا مملوكك الجاني أسير في قبضتك، مقرّب بذنبه معترف بجُرمه، مضطّرّ إليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المضطرين، وأدعوك دعاء المنكسرين إلا غفرت لي ورحمتني - أفيرده الله تعالى بعد هذه الذلة وذاك الاضطرار والانكسار؟! وقد أحسن من قال^(١):

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُمِّلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ فِيمَا أَحَازِرُهُ
لَا يَجْبِرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يُهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

الله تعالى يدعوك إلى المغفرة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، بل يدعوك إلى المسارعة والمسابقة إلى المغفرة: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل

(١) ديوان المتنبي (ص ٤٣)، وانظر: البداية والنهاية (١٥ / ٢٧٨).

عمران: [١٣٣]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، هكذا نداء الله تعالى إلى الناس جميعاً.

إن ربكم له باب مفتوح للطالبيين، وله جناب مبذول للراغبين، وفضله ينادي: يا غافلون اخرجوا من دائرة المذنبين، وبادروا مبادرة التائبين النادمين، هذا دعاء إلى العصاة، ونداء إلى المذنبين: عودوا إلى الله، توبوا إلى الله، أوبوا إلى مغفرة الله؛ فإنكم إن عدتم إلى الله بالاستغفار غفر لكم، وإن عدتم إليه بالتوبة تاب عليكم.

فالمبادرة المبادرة، واعلم - أيها المسلم - أن الصلاة المفروضة استغفار، وأن الصلاة المندوبة بالليل استغفار، وأن المجالس المعمورة بالذكر استغفار، وأن الحجة المبرورة والعمرة المبرورة استغفار، وهكذا أنت مأمور أن تعيش مع الاستغفار، إذا ختمت صلاتك ختمتها بالاستغفار، «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا»^(١)، وقال الله تعالى - عن أوليائه -: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨]، بل في الحج قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وما من مجلس تجلسه إلا عليك أن تختمه بالاستغفار، فتقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»^(٢)، وقد كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدع مجلساً حتى يستغفر الله فيه، لا أقول: مرة، بل: سبعين مرة^(٣)، ولا أقول: سبعين مرة، بل: مائة مرة^(٤)، هذه كانت حال المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٧٦٩)، وأبو داود (٤٨٥٩) من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حقيقة التوبة وشرائطها:

من المناسب أن نبين هنا حقيقة التوبة ومعناها، وشرائطها التي لا تصح إلا بها.
فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف من الإنسان في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل.

وشرائط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والاعتذار.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم، فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة، ولما كانت التوبة متوقفة على تلك الثلاثة جعلت شرائط لها.

فأما الندم: فإنه لا يتحقق التوبة إلا به؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفي الحديث: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»^(١).

وأما الإقلاع: فلأن التوبة تستحيل مع مباشرة الذنب.

وأما الاعتذار: فإنه من تمام التوبة، وذلك بأن يقول بقلبه ولسانه: اللهم لا براءة لي من ذنب فاعتذر، ولا قوة فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر، اللهم لا عذر لي، وإنما هو محض حَقٌّ ومحض جنائي، فإن عفوت وإلا فالحق لك!

فهو اعتذار بإظهار الضعف والمسكنة، وغلبة العدو، وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة،

(١) أخرجه أحمد (٣٥٦٨)، وابن ماجه (٤٢٥٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وطمعاً في مغفرتك واتكلاً على عفوك، وحسنَ ظنٍّ بك، ورجاءً لكرمك، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك، وغرَّني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المُرْخَى عليّ، وأعاني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية^(١).

ثم يضاف إلى هذه الشروط الثلاثة: شرط الخروج من تبعات الذنوب، فإن كانت هذه الذنوب متعلقة بأكل حقوق العباد، أو العدوان عليهم في نفس، أو مال، أو عرض؛ فلا بد من رد الحقوق إلى أصحابها، أو طلب العفو منهم، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»^(٢)، وكذا لا بد من قضاء الفوائد، وأداء الفرائض، حتى يأتي العبد يوم القيامة سالماً من إثم الذنوب وتبعاتها.

نسأل الله تعالى ألا يحجز عنا التوبة، وألا يحرمننا الاستغفار، وأن يفتح لنا باب القبول؛ إنه جواد كريم ذو فضل عظيم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) مدارج السالكين (١/ ٢٠٠) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الموعظة الثامنة والعشرون

في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

الحمد لله رب العالمين، أقام بناء مجتمع المسلمين على دعائم الفضيلة، وشيد أركانه بآداب كريمة، وربى أهله على أخلاق مستقيمة، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وجميل القيم، وكريم الشيم، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فمن الآداب العظيمة التي شرعها الإسلام: أدب الاستئذان، وفيه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]، ففي الآية أنه لا يجوز أن يدخل بيت غيره إلا بالاستئذان؛ يعني: يجب الاستئذان إذا أراد الدخول إلى بيت غيره، ومعنى تستأذنوا: تستأذنوا.

والآية الكريمة وما بعدها تناول تشريع أدب الاستئذان، وبيان ما يتعلق به من أحكام لها غايات جلية؛ إذ ديننا رسالة إصلاح فاضلة، وشريعة طهر ناصعة، وآداب

اجتماعية سامية، ومثل إنسانية رفيعة، حوى خير ما في الأديان من سمو وأخلاق، تعاليمه تدعو إلى الكمال، وآدابه تشرق بالجمال، فهو رسالة الفضائل والآداب، بل هو رسالة الحياة.

وقد احتوت الآية الكريمة على خطاب للرجال والنساء معاً، خطاب إلهي ينهى عن دخول البيوت إلا إذا استأنسوا، والاستئناس: طلب الأنس وإزالة الوحشة، وهذا إنما يحصل بالاستئذان، أي: بطلب الإذن بالدخول، فمن بالخارج مستوحش، فإذا استأذن فأذن له زالت وحشته، واطمأنت نفسه.

ومن جهة أخرى: فإن الاستئذان أدب رفيع يحمي حرمة البيوت، ويحافظ على أسرارها، واقتحام البيوت من غير استئذان أمر فيه استهجان، وبُعد عن أدب الإيمان، ويهيئ الفرص للارتياح، ويفضي إلى ما لا تحمد عقباه!

حكم الاستئذان:

يحرم على الإنسان أن يدخل بيت غيره من الناس إلا باستئذان؛ لقوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

الحكمة من الاستئذان:

الاستئذان صيانة لحرمة البيوت، وضمانة لحفظ عورات أهلها.

الاستئذان من أجل البصر:

الناس في بيوتهم سلاطين متوجة، ليس لأحد أن يقتحم خلواتهم، ولا أن يطلع على عوراتهم، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّمَا جُعِلَ الاستِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤١) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.

وهذه الآيات جاءت متأخرة عن الآيات في صدر السورة والتي فيها النهي عن الزنا، وبيان سوء عاقبته وعقوبته.

سبب نزول الآيات:

ولما كان الزنا طريقه النظر المحرم، والخلوة المحرمة، والاطلاع على العورات، وكان الدخول على الناس بغير استئذان مظنة حصول ذلك أرشد الله المؤمنين إلى هذا الأدب العظيم، فهو وقاية وصيانة من أسباب الفاحشة - عيادًا بالله.

وروي في سبب نزول الآية: أن امرأة أتت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: «إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أحب أن يراني عليها لا والد ولا ولد، فيأتيني آتٍ فيدخل عليّ، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية»^(١).

الاستئذان والاستئناس:

في هذه الآية نهي عن دخول البيوت من غير استئذان ولا استئناس، والاستئناس أمر وراء الاستئذان، والاستئناس حصول الأُنس بدخول الداخل، وزيارة الزائر، لا مجرد الإذن له بالدخول.

وهذا يُظهر أدبًا لطيفًا في الاستئذان، وهو اختيار الأوقات المناسبة، وتحين الظروف الملائمة للدخول على الناس، فهناك أوقات لا ينبغي أن يُزارَ الناس فيها عمومًا كوقت الظهيرة، وآخر الليل ونحو ذلك، والمستأذِن فيها - لغير ضرورة - سيئ الأدب قليل الفهم؛ لأنه لا يُتصور استئناس أو ائتناس بزيارة في هذا الوقت، فإذا انتقى الإنسان الوقت فإن كمال الأدب يقتضي تحديد موعدٍ مع ربِّ البيت، أو المستأذِن عليه، وربما كان استعمال الهاتف في ذلك اليوم من الأمور الحسنة.

(١) أخرجه الواحد في أسباب النزول (٦٣٨).

فإذا جاء الإنسان في مواعده - لا بعده بساعة - فليتأدب بأدب ثانٍ من آداب الاستئذان، وهو: أن يقرع الباب ثلاثاً، ومثل قرع الباب: استعمال جرس الباب اليوم.

فأما البيوت العامة كال فنادق والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن، فلا حرج في الدخول إليها بغير استئذان؛ دفعاً للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩] فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهركم وخافيكم؛ ورقابته لكم في سركم وعلايتكم، وفي هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب، وامثالها لذلك الأدب العالي الذي يأخذها الله به في كتابه.

وفي أدب الاستئذان جملة آداب، منها:

- تقديم السلام قبل الاستئذان:

فيقول: السلام عليكم، أَدْخُلْ، فإن لم يجبه أحد، قال ذلك ثانياً وثالثاً، فإن لم يجبه أحد انصرف، في الحديث عن ربعي بن حراش قال: «حدثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في بيت، فقال: أَلْج؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخادمه: اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلَّمَهُ الْاسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلَ»^(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء أن الاستئذان مشروع، وتظاهرت به دلائل القرآن والسنة وإجماع الأمة، والسنة أن يُسَلِّمَ ويستأذن ثلاثاً فيجمع بين السلام والاستئذان، كما صرح به القرآن، واختلفوا في أنه هل يستحب تقديم السلام، ثم الاستئذان، أو تقديم الاستئذان، ثم السلام؟

(١) أخرجه أبو داود (٥١٧٧).

الصحيح الذي جاءت به السنة وقاله المحققون: أنه يقدم السلام، فيقول: السلام عليكم أَدْخَلَ؟ والثاني: يقدم الاستئذان، والثالث: هو اختيار الماوردي من أصحابنا إن وقعت عين المستأذن على صاحب المنزل قبل دخوله قَدَّمَ السلام، ولا يقدم الاستئذان، وصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثان في تقديم السلام^(١).

- أن يقف المستأذن عن يمين أو شمال الباب:

حتى لا تقع عينه على شيء في الدار، فإنما جُعِلَ الاستئذان من أجل البصر، ففي الحديث: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ، أَوْ الْأَيْسَرِ، وَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا - يَوْمَئِذٍ - سُتُورٌ»^(٢).

فإذا اتخذ المستأذن موقعاً من الباب فلا يستقبل الباب بوجهه وجسده؛ لئلا يقع بصره على شيء يكرهه، أو يكرهه صاحب البيت؛ لأن صاحب البيت قد لا يحب لهذا الذي يقف خلف الباب أن يطلع على ما في الدار فجأة، وربما فتح الباب طفل غير مميز أو خادم لا يتحفظ مما يتحفظ منه صاحب الدار.

ولما وقف رجل بباب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستقبلاً الباب، قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَكَذَا عَنْكَ، أَوْ هَكَذَا - يعني: خذ إلى جانب اليمين قليلاً، أو إلى جانب اليسار قليلاً، ولا تقف تلقاء الباب - فَإِنَّمَا الْإِسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ»^(٣)، يعني: إنما شرع الاستئذان من أجل النظر؛ لئلا يقع نظرك على شيء لا يرتضيه صاحب البيت.

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/١٣١).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٩٢)، وأبو داود (٥١٨٦) من حديث عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٧٤).

- أن يُعَرِّفَ بِنَفْسِهِ:

فإن لم يُفْتَحِ الباب وسمع الطارق صوتاً يسأله من بالباب؟ أو من الطارق؟ أو من المستأذن؟ أو من أنت؟ فلا يقل: أنا، أو يقل: شخص، أو يقل: رجل، أو يقل: أحد، فإن هذه الكلمات لا تُعَرِّفُ به، وإنما تزيده إبهاماً، وتثير المخاوف في قلب مَنْ هو خلف الباب، فعليه إذا قيل له: من بالباب؟ أن يقول اسمه واسم أبيه، أو الاسم الذي به يُعرف، ولا يقل: أبو فلان؛ فإن قال: أنا أبو عبد الله، أو أنا أبو عبد الرحمن، فإن هذا - أيضاً - لا يُعَيِّنُهُ.

وفي الحديث: «استأذنت أم هانئ بنت عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: مَنْ هَذِهِ؟ فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب»^(١).

فإن كان الاسم لا يفيد في التمييز كثيراً فلا مانع من ذكر ما يحصل به التعريف، فحين: «ذهبت زينب امرأة عبد الله بن مسعودٍ تَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ زَيْنَبُ تَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ: أَيُّ الزَّيَانِبِ هِيَ؟ قَالُوا: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: ائْذَنُوا لَهَا، فَدَخَلَتْ»^(٢).

- أن يقرع الباب برفق:

فقد أخبر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن أبواب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت تُقرع بالأظافر»^(٣)، وهذا محمول على مبالغتهم في التأدب مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ من الناس مَنْ إذا جاء يستأذن دَقَّ الباب دَقَّ الجبابة، وهذا ليس في زماننا فحسب، بل هو في الزمان الأول، وكما يقع من الرجال يقع من النساء.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦٢) من حديث أم هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٢)، ومسلم (١٠٠٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلقد جاءت امرأة إلى بيت الإمام أحمد في حاجة لها فدقَّت الباب دقًّا عنيفاً، فخرج الإمام وهو يقول: «ذا دَقَّ الشُّرْطُ» - يعني: الشرطة -^(١)؛ فلا ينبغي - إذاً - أن يكون الدقُّ عنيفاً، وإنما ينبغي أن يكون رقيقاً.

- إمهال أهل الدار:

وينبغي أن يجعل بين الدقتين زمناً مناسباً؛ فإنَّ أهل البيت في الدقة الأولى يستمعون، وفي الثانية يتأهبون، وفي الثالثة يأذنون ويرحبون، وإذا كانت الدقات متتالية متتابعة لم يَبَقْ لأهل البيت سعة ولا فسحة.

- تكرار الاستئذان:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا اسْتَأْذَنْ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ»^(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «استأذن عمر على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: السلام على رسول الله، السلام عليكم، أيدخل عمر؟»^(٣).

قال ابن عبد البر: «قال بعضهم: المرة الأولى من الاستئذان: استئذان، والمرة الثانية: مشورة، هل يؤذن في الدخول، أم لا، والثالثة: علامة الرجوع، ولا يزيد على الثلاث»^(٤).

- أن لا ينظر في البيت بغير إذن:

فمن اطلع في دار أخيه - أو في دار غيره - بغير إذنه فقد أساء وظلم، فلو قلعوا عينه وذهب بصره لهدرت تلك العين، وهذا مشهور من مذهب الإمام الشافعي، والإمام

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٩٩٢)، وأبو داود (٥٢٠١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) التمهيد، لابن عبد البر (٢٤/٢٠٤).

أحمد رحمهما الله مستدلين بحديث: «مَنِ اطَّلَعَ فِي دَارِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَفَقَوْا عَيْنَهُ فَقَدْ هَدَرَتْ عَيْنُهُ»^(١) وحديث: «طالع رجل في حجرة من حجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع النبي مِدْرَأةٌ يحك بها رأسه، فقال: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ لَطَعَنْتُ بِهَا فِي عَيْنِكَ؛ إِنَّمَا جُعِلَ الْاِسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ النَّظَرِ»^(٢).

- إذا لم يؤذن للمستأذن فليرجع:

وإذا استأذن إنسان مرة بعد مرة فلم يؤذن له، فماذا يفعل؟ عليه أن يرجع، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

هذا أدب في حال الاعتذار عن الإذن، وهذا الاعتذار إما أن يكون ضمنيًا، وإما أن يكون تصريحًا، ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ هذا الضمني، وأما التصريح في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾.

ولا حرج ألا يأذن الإنسان في وقت هو فيه غير مستعد لاستقبال الأضياف، ولا حرج إذا قيل لك: ارجع أن ترجع، ولا حرج إذا لم تسمع من يجيب طلبك بالدخول أن ترجع بعد أن تطرق الباب ثلاثًا، والإلحاح فوق ثلاث خلاف الأدب، إلا إذا علم أن من بالبيت لم يسمعوا.

- استئذان المسافر إذا قدم ليلاً:

نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قدم الرجل من سفر أن يطرق أهله بالليل من غير استئذان، فقد ورد: أنه نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٩٣٦٠)، وأبو داود (٥١٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٠٩) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٧١٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد جاء نبينا مرةً من سفر نهارًا فأناخ بظاهر المدينة، وأمرهم بالانتظار إلى آخر النهار حتى تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة^(١).

ما أعظم هذا الأدب، وما أرقه! إنه لأدبُ نبي كريم صلوات الله وسلامه عليه.

- الاستئذان على الزوجات:

وهنا استئذان - أيضًا - على الزوجات، وإن كان لا يجب على الرجل أن يستأذن على زوجته، لكنه قد يستحب، فعن زينب امرأة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنه كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق؛ كراهة أن يهجم منا على شيء يكرهه»^(٢)، وكان أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح، أو يحرك نعليه»^(٣)، يعني: إشارة بالصوت إلى أنه قد قدم.

- الاستئذان على المحارم من الأمهات والأخوات والبنات:

الاستئذان على المحارم من الأمهات والأخوات أكد في حق كل مسلم، عن عطاء قال: «سألت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقلت: أستأذن على أختي؟ فقال: نعم، فقلت: أختان في حجرى وأنا أُمُوهُمَا وأنفق عليهما، أستأذن عليهما؟ قال: نعم، أتحب أن تراهما عريانتيْن؟!»^(٤).

وقال موسى بن طلحة: «دخلت مع أبي على أُمي، فدخل فاتبعته، فالتفت فدفع في صدري حتى أقعدني على استي، قال: أتدخل بغير إذن؟!»^(٥).

وهذه مسألة مهمة؛ الأب يستأذن على بناته، والأخ يستأذن على أخواته، وسأل

(١) أخرجه البخاري (٥٠٧٩)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦١٥).

(٣) الآداب الشرعية (٣٩٩/١).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٦٣).

(٥) المصدر السابق (١٠٦١).

رجل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «أستأذن على أُمِّي؟ فقال: إن لم تستأذن عليها رأيت ما تكره»^(١).

لقد جعل الله البيوت سكناً يفيء الناس إليها، فتسكن أرواحهم، وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرمتهم، ويلقون أعباء الحرص والحذر التي ترهق الأعصاب، وتكدُّ الأذهان، وهي لا تكون كذلك إلا بأن تغدو هذه البيوت حَرَمًا آمِنًا، لا يستبيحه أحدٌ إلا بعلم، أو بإذن، فلا يستباح دخول بغير إذن، إلا لضرورة حريق، أو هجوم لصٍّ، أو ظهور منكرات فاحشة، وهذا الحكم يعمُّ الرجال والنساء، والبالغين من الأطفال، ومن ناهز البلوغ - أيضًا.

هذا أدب جليل عظيم من آداب الإسلام حُرِّيٌّ بمن قرأ القرآن وتدبره، وأراد سمو حياته، ورقى أحواله أن يعمل به في نفسه، وأن يعلمه أهل بيته، وأن يعلمه لذريته، نسأل الله تعالى أن يؤدبنا بآداب المصطفى، وأن يعلمنا من هديه المجتبي؛ إن ربنا جواد كريم، بَرُّ رؤوف رحيم، والحمد لله رب العالمين.



(١) المصدر السابق (١٠٦٠).

الموعظة التاسعة والعشرون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

[آل عمران: ٩].

الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده،
وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الصادق المصدوق، وعلى آله وأصحابه
أجمعين، أما بعد:

فإن من أعظم دلائل الإيمان الباهرة وآياته الساطعة: أن يأتي في آيات القرآن
الكريم، وفي ثنايا الذكر الحكيم وعودٌ متعددةٌ تتعلق بأصناف الخلائق على تنوعها
وتباين أحوالها، فتتحقق كما جاء الوعد بغير اختلاف ولا إخلال!

فعود الله للمؤمنين منجزةً في الدنيا قبل الآخرة، وتوعد الله للكافرين والمنافقين
متحقق في الدنيا قبل الآخرة، والنفس البشرية تميل إلى الإيمان بالغيب وتتطلع إلى
تحقيقه وتنتظر حصوله لتراه بعيني رأسها، وعود القرآن كثيرةٌ جدًّا:

- منها: ما تحقق من فوره.

- ومنها: ما تحقق في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
 - ومنها: ما تحقق في حياة أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
 - ومنها: ما يزال يتحقق إلى يوم الناس هذا!
 - ومنها: ما يُستحق في الآخرة، كما تحقق الموعود به في الدنيا!
- وتصفح ما في القرآن من وعود، وما في الواقع من تحقق لها وإنجاز يملأ القلب بالرهبة والإعجاز!

لقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

وقال سبحانه - على لسان عباده المؤمنين -: ﴿رَبَّنَا وَعِدْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقال ﷺ: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

والمسلم المؤمن مصدق بكلام ربه ووعدده ووعيده، فالله تعالى هو الأصدق قيلاً وحديثاً، ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وكما قال الله - عن أنبيائه في حياتهم الدنيا -: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩] وقال - أيضاً - عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه في الدنيا -: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فإلى شواهد من الإعجاز في الإنجاز لموعد الله في كتابه الحكيم وقرآنه العظيم:

أولاً: ما يتعلق بالقرآن الكريم، وموقف الكفار والمكذابين:

تحدّى الله ﷻ الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وجزم بأنهم لا يستطيعون ذلك إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤] وقد تحداهم بمثله، وبمثل عشر سور منه، وبمثل سورة منه - كما في الآية السابقة - فتحقق العجز لتحصل الفائدة، التي في قوله تعالى: ﴿فَكَلِمَةٌ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٤].

فالجزم بعجزهم في سياق التحدي لهم مع اكتمال آلتهم في اللغة، وشدة كفرهم، ورغبتهم في المعارضة، ومنعهم من ذلك في الحال والاستقبال - شاهد صدق وبرهان حق على أنه من عند الله، وأن البشر لا يستطيعونه!

ثانياً: وعود الله في حياة المرسلين:

وعد الله أم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ برد ابنها إليها وإنجائه من أمواج اليم، ومن بطش الفرعون، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَاعْلَمِيهِ فِي إِلَهِهِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَهُكَ ۚ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧].

ثم بعدها بآيات قال: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ۖ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣].

وفي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَ اللهُ إِيَاهُمْ بِالِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ثم قال سبحانه: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي آلِيهِمْ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٦ - ١٣٧].

وفي قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَدَهُ اللهُ وَعَدَ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

ثم تحقق هذا الوعد في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩) قَالُوا أَيْ نَكَ لَا نَتَّيُسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩ - ٩٠].

وفي آخر السورة وَعَدُ عَامٌّ لِأَنْبِيَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

ولذا قال- في آخر سورة إبراهيم-: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

ثالثاً: وعود القرآن في حق كفار مكة المكذبين:

قال تعالى: ﴿سَيَهَيِّجُ الْجَمْعَ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

كان هذا توعداً لهم بمكة، ويتضمن نصراً لأهل الإسلام، فلما وقعت بدر الكبرى تحقّق موعود الله فيهم!

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما نزلت: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ﴾ [القمر: ٤٥] جعلت أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَثْبُ في الدرع، ويقول: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]»^(١).

وقال سبحانه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد].

وهي سورة جازمة بموته على الكفر هو وزوجته! وقد ماتا على الكفر بعد بدر الكبرى!

وقال - لهم -: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] فكانت غزوة بدر الكبرى.

ومن هذا الباب كذلك: قول الله تعالى - في أمية بن خلف -: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فقاتل يوم بدر، فخطم بالسيف في القتال»^(٢).

رابعاً: وعود ووعيد القرآن لليهود:

فقد وعدهم الله بنفوذهم إلى فسادين كبيرين، كما توعد وتعهّد بإزالتهما في آيات سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفِئِدَنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥٧/٢٢).

(٢) المصدر السابق (١٧٠/٢٣).

وقال - في إزالة الإفساد الأول - : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ٥].

وقال - في إزالة الإفساد الثاني - : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧].

خامسًا: وعد الله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة:

قال الله - للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طريق هجرته - : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥].

وقال له - أيضًا - : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨٠ - ٨١].

فلما عاد إلى مكة بعد نحو تسع سنوات عاد فاتحًا، محطماً الأصنام، وهو يتلو: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

سادسًا: وعد الله لعباده المؤمنين:

قال تعالى - في صدر سورة الروم - : ﴿ أَلَمْ (١) غَلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ١ - ٦].

وقال - يعد المؤمنين - : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[النور: ٥٥]، فتحقق وعده لهم ونصروا على أعدائهم على قلة عددهم وعتادهم، فقال الله لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَأَوْنَكُمْ وَيَأْتِيَكُمْ بِصُرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقال لهم - عقب أحد -: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فكانوا الأعلى بعد ذلك في حمراء الأسد، وما بعدها من مواقع، حتى فتح الله عليهم مكة، ثم جزيرة العرب بأسرها.

وصدق الله حيث قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، فاللهم آتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



الموعظة الثلاثون

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

الحمد لله الهادي إلى رضوانه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ الداعي إلى جنته وغفرانه، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أقفال القلوب إنما يفتحها علام الغيوب، فإذا انفتح القلب انشرح وانفسح فدخله النور، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. فمن شرح الله صدره انفتح قلبه فدخله نور الهدى، وهذا لا يكون كمن أغلق قلبه فعلاه الصداً وأظلم.

وفي الحديث: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ، فَيَقِيلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِدَلِّكَ مِنْ عِلْمٍ يُعْرَفُ؟ قَالَ: نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْعُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»^(١).

(١) أخرجه الحاكم (٧٨٦٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا أدرك العبد أنه عبد لله مربوب، وتحت سلطانه مقهور، وهو مع ذلك بالنعمة مغمور، تحفُّه النعماء من كل جانب، وتدفع عنه البأساء، ويصرف البلاء من كل طريق، حصل له من ذلك انتباه إلى خالقه ومولاه، وتأمل في واجبات عبوديته لربه، فإذا نظر إلى تلك الأوامر الشرعية، والواجبات الدينية علم أنه إلى من يعرفه بالله تعالى وشرعه في أشد الاحتياج، وإلى طلب علم معرفة ربه تبارك وتعالى وشرعه في أعظم فاقة، حتى تستقيم طريق عبوديته، وتظهر له معالم هدايته.

قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وعندها يسارع إلى علماء الآخرة، إلى العلماء بالله العارفين بحقه وقدره، إلى أهل الخشية والمراقبة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فهم أهل الرضا والمحبة، والقرب والولاية، قيل ليونس بن عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أتعرف أحداً يعمل بعمل الحسن البصري؟ فقال: والله لا أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يعمل بعمله؟! كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أمر بضرب عنقه، وإذا ذُكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له!»^(١).

هذا وأمثاله ممن قيل فيهم:

وَإِذَا سَكَنَ الْغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ	وَجُنَّبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ
بَدَتْ فِيهِ السَّمَاءُ بِلَا امْتِرَاءٍ	كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنُّجُومُ
كَذَاكَ وَجُوهُ أَرْبَابِ التَّجَلِّي	يُرَى فِي صَفْوِهَا اللَّهُ الْعَظِيمُ

قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَجْلِسُ كُنْتُ أَجْلِسُهُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٩٢).

أوثق في نفسي من عمل سَنَةٍ!!^(١)، أي: من عبادتها.

وقال عمر - عن أهل هذه المجالس - : «لولا مجالسة أقوام يتتقون أطياب الكلام كما يُتَّقَى أطيبُ التمر ما أُحِبُّتُ البقاء في الدنيا»^(٢).

فيا أيها الطالب للنجاة إن أظفرك الله بواحد من هؤلاء فاشدد عليه يدك، فهو الكنز المأمون، وبائعه بالدنيا بأسرها مغبون!

مَجَالِسُهُمْ مِثْلُ الرِّيَاضِ أُنِيقَةُ قَدْ طَابَ مِنْهَا الرِّيحُ وَاللَّوْنُ وَالطَّعْمُ

وعن هذا تأخذ من العلم ما يبصرك ويرشدك، ويهديك ويسدّدك، ومن جهته تتعلم ما يلزمك من الفرائض أمثاله، وما ينبغي عليك من النوافل اغتنامه.

فإذا سعت في تحقيق الفرائض، والاستكثار من النوافل ستعرض لك ذنوبك الكثيرة، وآفاتك الخطيرة، ومعاصيك التي عليها أصررت، والتي عنها ما أقلعت ولا تبت، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، والتوبة واجبة على جميع المؤمنين ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فالبدارَ البدارَ إلى التوبة والاستغفار؛ فإن شؤم الذنب يورث الحرمان، ويعقب الخذلان، وقيد الذنب يحول بين العبد والطاعات وإذا لم تقوَ على قيام ليل، وصيام بنهار، فقد كبلك خطاياك.

والتوبة ترك الذنوب السالفة تعظيمًا لله، وحذرًا من عقوبته، والتوبة النصوح عزيزة.

قال أبو إسحاق الإسفراييني رَحِمَهُ اللَّهُ: «دعوتُ الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقني

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٥٣/٣٣).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/٢٦٩).

توبة نصوحًا، ثم تعجبت في نفسي، وقلت: سبحان الله، حاجة دعوت الله سبحانه فيها ثلاثين سنة فما قضيت إلى الآن، فأريت بما يرى النائم كأن قائلًا يقول لي: أتتعجب من ذلك؟ أتدري ماذا تسأل الله سبحانه؟ إنما تسأله سبحانه أن يحبك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ^(١).

أهذه حاجة هينة؟!

يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يُتُوبُ فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يُتُوبُ

فمن تاب، ثم أذنب فليتب، ثم ليتب، ثم ليتب وليستغفر! قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

فإذا تحققت من التوبة سهل لك طريق العبادة، فإذا شرعت في أوائلها واجهتك أربع عقبات محدقات وجب على العاقل قطعها؛ فعقبة النفس، وعقبة الدنيا، وعقبة الخلق، وعقبة الشيطان، وهاك تفصيلها:

عقبة النفس:

وأشد هذه العقبات: عقبة النفس وهواها، فهي أشدُّ ثقلًا وتغيُّرًا وتحولًا وتبدلاً، هواها يغلب العبد المرة بعد المرة.

والهوى هو حظار جهنم وحماها المحيط بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها، كما في الحديث: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» ^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا،

(١) منهاج العابدين، للغزالي (ص ٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِكَ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ^(١).

ولا شك أن أصل كل بلية للنفس فيها مدخل، فالنفس صعبة القياد، ولا تنقاد إلا أن تُحمل على الطاعة حملاً، وتُمنع الشهوات منعاً، ويستعان بالله تعالى عليها، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

عقبة الدنيا:

أما الدنيا فدفعها بالتجرد عنها والزهد في متاعها، وهي ضرة الآخرة، ولم تجتمع محبة الدنيا والآخرة في قلب عبد صادق، فمن أحب أيتها أضرَّ بالآخرة.

فآثر ما يبقى على ما يفنى، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

فالمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يُعبر إليها إلا على جسر المَشَقَّة، ولا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجَدِّ وَالْإِجْتِهَادِ.

(١) أخرجه أحمد (٨٣٩٨)، وأبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي (٣٧٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللهُ: «لا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجَسَدِ»^(١).

وقد قيل: من طلب الرَّاحَةَ ترك الرَّاحَةَ.

فَيَا وَضَلَ الْحَيْبِ أَمَا إِلَيْهِ بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ أَبَدًا طَرِيقُ

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللَّذَّةِ، وعِظَم قدرها لتجالدوا عليها بالسُّيُوفِ، ولكن حُفَّت بحجاب من المكاره، وحُجِّبوا عَنْهَا بحجابٍ من الجهل ليختص الله لها من يشاء من عبادِهِ، والله ذو الفضل العظيم.

ولا يُتَخَلَّص من الدنيا إلا بالزهد فيها، ولا يتأتى هذا إلا بطلب الآخرة أولاً، وترك طلب المفقود من الدنيا ثانياً، وبتفريق المجموع من الدنيا ثالثاً.

والزهد في الحرام واجب على جميع الأنام.

والزهد في الدنيا سببٌ لمحبة الله: «ارْزُقْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَارْزُقْ فِيهَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»^(٢)، «طُوبَى لِمَنْ هَدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا، وَقَنَعَ»^(٣).

عقبة الخلق:

وأما الخلق فلا سبيل إلى ترك أذاهم، أو النجاة من عداوتهم، فلا بد من مجاهدتهم ومصابرتهم، وهذا مما ابتلى الله به الكافة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «... وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض،

(١) صحيح مسلم (٢١٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩٤٤)، والترمذي (٢٣٤٩) من حديث فضالة بن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فامتنح الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتنح المرسل إليهم بالرسول، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاثلونهم؟ وامتنح العلماء بالجهال، هل يُعلِّمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟ وامتنح الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟ وامتنح الملوك بالرعية، والرعية بالملوك، وامتنح الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، وامتنح الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة، وامتنح المالك بمملوكه، ومملوكه به، وامتنح الرجل بامرأته، وامرأته به، وامتنح الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار، والكفار بالمؤمنين، وامتنح الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتنح المأمورين بهم»^(١).

عقبة الشيطان:

وأما الشيطان فقد قال الله فيه: ﴿وَمَا يَزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٦]. وكيده وإن اشتد فهو ضعيف.

فالاستعاذة واللياقة بالله من شره تدفعه وتقمعه، فاللهم أجنا من شر الشيطان وشركه، وأعذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، واعصمنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، برحمتك يا أرحم الراحمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦١).

فهرس المحتويات

مقدمة	٥
الموعظة الأولى:	
في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾	٩
الموعظة الثانية:	
في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾	١٧
الموعظة الثالثة:	
في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾	٢٩
الموعظة الرابعة:	
في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾	٣٩
الموعظة الخامسة:	
في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾	٥٥
الموعظة السادسة:	
في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾	٦٣
الموعظة السابعة:	
في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾	٧٣
الموعظة الثامنة:	
في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾	٨٥

الموعظة التاسعة:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ٩٩

الموعظة العاشرة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ ١٠٩

الموعظة الحادية عشرة:

في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَهُنَّ﴾ ١١٧

الموعظة الثانية عشرة:

في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ١٤٣

الموعظة الثالثة عشرة:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ١٥١

الموعظة الرابعة عشرة:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ ١٦١

الموعظة الخامسة عشرة:

في قوله تعالى: ﴿وَكَاذِبًا حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٦٩

الموعظة السادسة عشرة:

في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ ١٨٧

الموعظة السابعة عشرة:

في قوله تعالى: ﴿فَسَاءَ لَوْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ﴾ ١٩٥

الموعظة الثامنة عشرة:

في قوله تعالى: ﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْكِرُ﴾ ٢٠٥

الموعظة التاسعة عشرة:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ٢١٣

الموعظة العشرون:

في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطَعَّمُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ٢١٩

الموعظة الحادية والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ٢٢٧

الموعظة الثانية والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ٢٣٥

الموعظة الثالثة والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٢٤٥

الموعظة الرابعة والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ٢٥٣

الموعظة الخامسة والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا﴾ ٢٥٧

الموعظة السادسة والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ ٢٦٥

الموعظة السابعة والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ٢٧٥

الموعظة الثامنة والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ ٢٨٣

الموعظة التاسعة والعشرون:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ٢٩٣

الموعظة الثلاثون:

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ٣٠١

الفهرس ٣٠٩